مسألة الطور وعبادة العجل وحب العمر الطويل وعداوة بني إسرائيل لجبريل (ع)

﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾ ۞ وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُواْۖ قَالُواْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ البقرة: ٨٩ - ٩٩.

أما تفسيرها بحسب:

- ابن كثير:

﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ البقرة: ٨٩

يقول تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ ﴾ يعني اليهود ﴿ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ وهو القرآن الذي أنزل على محمد (ص) ﴿ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ ﴾ يعني من التوراة، وقوله: ﴿ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ أي: وقد كانوا من قبل مجيء هذا الرسول بهذا الكتاب يستنصرون بمجيئه على أعدائهم من المشركين إذا قاتلوهم، يقولون إنه سيبعث نبي في آخر الزمان نقتلكم معه قتل عاد وإرم، فلما بعث الله رسوله من قريش كفروا به. قال الضحاك عن ابن عباس في قوله: ﴿ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ قال يستنصرون: يقولون نحن نعين محمداً عليهم وليسوا كذلك بل يكذبون. وقال محمد بن إسحاق عن ابن عباس: إنَّ اليهود كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله (ص) قبل مبعثه، فلما بعثه الله من العرب كفروا به وجحدوا ما كانوا يقولون فيه. فقال لهم معاذ بن جبل: يا معشر يهود اتقوا الله وأسلموا فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد (ص) ونحن أهل شرك وتخبروننا بأنه مبعوث وتصفونه بصفته، فقال (سلاّم بن مشكم) أخو بني النضير: ما جاءنا بشيء نعرفه وما هو بالذي كنا نذكر لكم، فأنزل الله في ذلك من قولهم: ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ ﴾ الآية. وقال العوفي عن ابن عباس: ﴿ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ يقول: يستنصرون بخروج محمد (ص) على مشركي العرب، يعني بذلك أهل الكتاب، فلما بُعث محمد (ص) ـ ورأوه من غيرهم ـ كفروا به وحسدوه. قال مجاهد: ﴿ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ هم اليهود.

﴿ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ

مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾البقرة: ٩٠

قال السدي: ﴿ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ﴾ باعوا به أنفسهم، يقول: بئسما اعتاضوا لأنفسهم فرضوا به وعدلوا إليه من الكفر بما أنزل الله على محمد (ص) عن تصديقه ومؤازرته ونصرته، وإنما حملهم على ذلك البغي والحسد والكراهية لـ﴿ أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ﴾والحسد أعظم من هذا. ومعنى (باؤوا) استوجبوا واستحقوا واستقروا بغضب على غضب. قال أبو العالية: غضب الله عليهم بكفرهم بالإنجيل وعيسى، ثم غضب الله عليهم بكفرهم بمحمد (ص) وبالقرآن. قال السدي: أما الغضب الأول فهو حين غضب عليهم في العجل وأما الغضب الثاني فغضب عليهم حين كفروا بمحمد (ص)، وعن ابن عباس مثله.

وقوله تعالى: ﴿ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ لما كان كفرهم سببه البغي والحسد ومنشأ ذلك التكبر قوبلوا بالإهانة والصغار في الدنيا والآخرة كما قال تعالى: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾غافر: ٦٠ أي: صاغرين حقيرين ذليلين. وعن النبي (ص) قال: ((يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر في صور الناس يعلوهم كل شيء من الصغار حتى يدخلوا سجناً في جهنم يقال له (بولس) تعلوهم نار الأنيار يسقون من طينة الخبال عصارة أهل النار)).

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾ ۞ وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾ البقرة: ٩١-٩٢

يقول تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ﴾ أي: لليهود وأمثالهم من أهل الكتاب ﴿ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾ على محمد (ص) وصدقوه واتبعوه، ﴿ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ﴾

أي: يكفينا الإيمان بما أنزل علينا من التوراة والإنجيل ولا نقر إلاَّ بذلك ﴿ وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ ﴾ يعني بما بعده، ﴿ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ﴾ أي: وهم يعلمون أن ما أنزل على محمد (ص) ﴿ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ﴾ من التوراة والإنجيل، فالحجة قائمة عليهم بذلك كما قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ﴾البقرة: ١٤٦ ، ثم قال تعالى: ﴿ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾؟ أي: إن كنتم صادقين في دعواكم الإيمان بما أنزل إليكم، فلم قتلتم الأنبياء الذين جاؤوكم بتصديق التوراة التي بأيديكم، والحكم بها وعدم نسخها وأنتم تعلمون صدقهم؟ قتلتموهم بغياً وعناداً واستكباراً على رسل الله فلستم تتبعون إلا مجرد الأهواء والآراء والتشهي، كما قال تعالى: ﴿ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾البقرة: ٨٧. وقال ابن جرير: قل يا محمد ليهود بني إسرائيل إذا قلت لهم: آمنوا بما أنزل الله قالوا نؤمن بما أنزل علينا، لم تقتلون ـ إنْ كنتم مؤمنين بما أنزل الله ـ أنبياء الله يا معشر اليهود، وقد حرم الله في الكتاب الذي أنزل عليكم قتلهم، بل أمركم باتباعهم وطاعتهم وتصديقهم، وذلك من الله تكذيب لهم في قولهم ﴿ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ﴾ وتعيير لهم. ﴿ وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ أي: بالآيات الواضحات والدلائل القاطعات على أنه رسول الله وأنه لا إله إلاَّ الله، والآيات البينات هي: (الطوفان، والجراد، والقُمّل، والضفادع، والدم، والعصا، واليد، وفرق البحر، وتظليلهم بالغمام، والمن، والسلوى، والحجر) وغير ذلك من الآيات التي شاهدوها ﴿ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ ﴾ أي: معبوداً من دون الله في زمان موسى وأيامه. وقوله: ﴿ مِنۢ بَعْدِهِۦ ﴾أي: من بعد ما ذهب عنكم إلى الطور لمناجاة الله عزَّ وجلَّ كما قال تعالى: ﴿ وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ﴾ الأعراف: ١٤٨، ﴿ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾ أي: وأنتم ظالمون في هذا الصنيع الذي صنعتموه من عبادتكم العجل، وأنتم تعلمون أنه لا إله إلاَّ الله كما قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا۟ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا۟ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾الأعراف: ١٤٩ .

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ البقرة: ٩٣

يعدد سبحانه وتعالى عليهم خطأهم ومخالفتهم للميثاق، وعتوهم وإعراضهم عنه حتى رفع الطور عليهم حتى قبلوه ثم خالفوه: ولهذا ﴿قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ وقد تقدم تفسير ذلك. ﴿وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾. عن قتادة قال: اشربوا حبه حتى خلص ذلك إلى قلوبهم. وعن النبي (ص): ((حبك الشيء يعمي ويصم)). وعن علي (ع) قال: عمد موسى إلى العجل فوضع عليه المبارد فبرده بها وهو على شاطئ نهر، فما شرب أحد من ذلك الماء ممن كان يعبد العجل إلاَّ اصفرّ وجهه مثل الذهب.

وقوله: ﴿قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي بئسما تعتمدونه في قديم الدهر وحديثه من كفركم بآيات الله، ومخالفتكم الأنبياء، ثم كفركم بمحمد (ص) وهذا أكبر ذنوبكم وأشد الأمور عليكم، إذ كفرتم بخاتم الرسل وسيد الأنبياء والمرسلين المبعوث إلى الناس أجمعين، فكيف تدّعون لأنفسكم الإيمان وقد فعلتم هذه الأفاعيل القبيحة من نقضكم المواثيق، وكفركم بآيات الله، وعبادتكم العجل من دون الله؟.

﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ البقرة: ٩٤-٩٦

يقول الله تعالى لنبيّه محمد (ص): ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أي: ادعوا بالموت على أي الفريقين أكذب، فأبوا ذلك على رسول الله (ص) ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا

﴿ قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۖ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ أي: يعلمهم بما عندهم من العلم بل والكفر بذلك ولو تمنوه يوم قال لهم ذلك ما بقي على الأرض يهودي إلاَّ مات. وقال الضحاك عن ابن عباس: ﴿ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ ﴾ فسلوا الموت؟ قال ابن عباس: «لو تمنى يهود الموت لماتوا ولو تمنوا الموت لشرق أحدهم بريقه)). وقال ابن جرير: وبلغنا أن النبي (ص) قال: ((لو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا ولرأوا مقاعدهم من النار، ولو خرج الذين يباهلون رسول الله (ص) لرجعوا لا يجدون أهلاً ولا مالاً)). ونظير هذه الآية قوله تعالى في سورة الجمعة: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦﴾ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ الجمعة: ٦ - ٧ . فهم ـ عليهم لعائن الله تعالى ـ لّما زعموا أنهم أبناء الله وأحباؤه، وقالوا: ﴿ لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ۗ تِلْكَ ﴾ البقرة: ١١١ دعوا إلى المباهلة والدعاء على أكذب الطائفتين منهم أو من المسلمين، فلما نكلوا عن ذلك علم كل أحد أنهم ظالمون، لأنهم لو كانوا جازمين بما هم فيه لكانوا أقدموا على ذلك، فلما تأخروا علم كذبهم. وهذا كما دعا رسول الله (ص) وفد نجران من النصارى بعد قيام الحجة عليهم في المناظرة، وعتوهم وعنادهم إلى المباهلة، فقال تعالى: ﴿ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴾ آل عمران: ٦١ . فلما رأوا ذلك قال بعض القوم لبعض: والله لئن باهلتم هذا النبي لا يبقى منكم عين تطرف، فعند ذلك جنحوا للسلم وبذلوا الجزية عن يد وهم صاغرون.

والمعنى إنَّ كنتم تعتقدون أنكم أولياء الله من دون الناس، وأنكم أبناء الله وأحباؤه، وأنكم من أهل الجنة ومن عداكم من أهل النار، فباهلوا على ذلك وادعوا على الكاذبين منكم أو من غيركم، واعلموا أن المباهلة تستأصل الكاذب لا محالة، فلما تيقنوا ذلك وعرفوا صدقه نكلوا عن المباهلة، لما يعلمون من كذبهم وافترائهم، وكتمانهم الحق من صفة الرسول (ص) ونعته، وهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ويتحققونه، فعلم كل أحد باطلهم وخزيهم وضلالهم وعنادهم، عليهم لعائن الله

المتتابعة إلى يوم القيامة. وسميت هذه المباهلة تمنياً لأن كل محق يود لو أهلك الله المبطل المناظر له، ولا سيما إذا كان في ذلك حجة له في بيان حقه وظهوره، وكانت المباهلة بالموت لأن الحياة عندهم عزيزة عظيمة لما يعلمون من سوء مآلهم بعد الموت، ولهذا قال تعالى: ﴿ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ ﴾ أي: على طول العمر لما يعلمون من مآلهم السيئ وعاقبتهم عند الله الخاسرة، لأن الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر، فهم يودون لو تأخروا عن مقام الآخرة بكل ما أمكنهم وما يحاذرون منه واقع بهم لا محالة، حتى وهم أحرص من المشركين الذين لا كتاب لهم، وهذا من باب عطف الخاص على العام، وقال الحسن البصري: ﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ ﴾ المنافق أحرص الناس، وأحرص من المشرك على حياة ﴿ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ ﴾ أي: يود أحد اليهود لو يعمر ألف سنة ﴿ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ﴾ أي: وما هو بمنجيه من العذاب، وذلك أن المشرك لا يرجو بعثاً بعد الموت، فهو يحب طول الحياة، وأن اليهودي قد عرف ماله في الآخرة من الخزي بما ضيع ما عنده من العلم فما ذاك بمغيثه من العذاب ولا منجيه منه. ﴿ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ أي: خبير بصير بما يعمل عباده من خير وشر، وسيجازي كل عامل بعمله.

﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ ﴾ البقرة: ٩٧ - ٩٨

قال أبو جعفر الطبري: أجمع أهل العلم بالتأويل جميعاً أن هذه الآية نزلت جواباً لليهود من بني إسرائيل إذ زعموا أن جبريل بل عدوّ لهم، وأن ميكائيل وليّ لهم، ثم اختلفوا في السبب الذي من أجله قالوا ذلك، فقال بعضهم: إنما كان سبب قيلهم ذلك من أجل مناظرة جرت بينهم وبين رسول الله (ص) في أمر نبوءته. عن ابن عباس قال: أقبلت يهود على رسول الله (ص) فقالوا: يا أبا القاسم أخبرنا عن

خمسة أشياء فإن أنبأتنا بهن عرفنا أنك نبي واتبعناك، فأخذ عليهم ما أخذ إسرائيل على بنيه إذ قال: ﴿ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾يوسف: ٦٦ قال: ((هاتوا))، قالوا: فأخبرنا عن علامة النبي؟ قال: ((تنام عيناه ولا ينام قلبه)). قالوا: أخبرنا كيف تؤنث المرأة وكيف تذكّر؟ قال: ((يلتقي الماءان فإذا علا ماء الرجل ماء المرأة ذكرت، وإذا علا ماء المرأة ماء الرجل أنثت))، قالوا: أخبرنا ما حرم إسرائيل على نفسه؟ قال: ((كان يشتكي عرق النساء فلم يجد شيئاً يلائمه إلاَّ ألبان كذا))، قال أحمد، قال بعضهم: يعني الإبل فحرم لحومها. قالوا: صدقت. قالوا: أخبرنا ما هذا الرعد؟ قال: ((ملك من ملائكة الله عزَّ وجلَّ موكل بالسحاب بيديه أو في يديه مخراق من نار يزجر به السحاب يسوقه حيث أمره الله تعالى)). قالوا: فما هذا الصوت الذي نسمع؟ قال: ((صوته))، قالوا: صدقت. قالوا: إنما بقيت واحدة وهي التي نتابعك إن أخبرتنا بها، إنه ليس من نبي إلاَّ وله ملك يأتيه بالخبر فأخبرنا من صاحبك؟ قال: جبريل (ع)، قالوا: جبريل ذاك الذي ينزل بالحرب والقتال والعذاب عدوّنا، لو قلت ميكائيل الذي ينزل بالرحمة والقطر والنبات لكان، فأنزل الله تعالى: ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾.

وقال ابن جرير عن ابن أبي ليلى في قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ ﴾ قال: قالت اليهود للمسلمين: لو أن (ميكائيل) كان هو الذي ينزل عليكم اتبعناكم فإنه ينزل بالرَّحمة والغيث، وإن (جبرائيل) ينزل بالعذاب والنقمة فإنه عدوّ لنا، قال: فنزلت هذه الآية.

وأما تفسير الآية فقوله تعالى: ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ أي: من عادى جبرائيل فليعلم أنه الروح الأمين، الذي نزل بالذكر الحكيم على قلبك من الله بإذنه له في ذلك، فهو رسول من رسل الله ملكي، ومن عادى رسولاً فقد عادى جميع الرسل، كما أن من آمن برسول فإنه يلزمه الإيمان بجميع الرسل، وكذلك من عادى جبرائيل فإنه عدوّ لله، لأن جبرائيل لا ينزل بالأمر من تلقاء نفسه

وإنما ينزل بأمر ربه كما قال: ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ﴾مريم: ٦٤ ، وقال تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴾ الشعراء: ١٩٢ - ١٩٤ .

وقد روى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله (ص): ((من عادى لي ولياً فقد بارزني بالحرب)) ولهذا غضب الله لجبرائيل على من عاداه، فقال تعالى: ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ أي: من الكتب المتقدمة ﴿ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي هدى لقلوبهم، وبشرى لهم بالجنة، وليس ذلك إلاَّ للمؤمنين كما قال تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ﴾فصلت: ٤٤ ، وقال تعالى: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾الإسراء: ٨٢، ثم قال تعالى: ﴿ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴾. يقول تعالى: من عاداني وملائكتي ورسلي ـ ورسله تشمل رسله من الملائكة والبشر. كما قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ﴾الحج: ٧٥، ﴿ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ ﴾ وهذا من باب عطف الخاص على العام فإنهما دخلا في الملائكة في عموم الرسل، ثم خُصّصا بالذكر، لأن السياق في الانتصار لجبرائيل، وهو السفير بين الله وأنبيائه، وقرن معه ميكائيل في اللفظ، لأن اليهود زعموا أن جبرائيل عدوهم، وميكائيل وليهم، فأعلمهم الله تعالى أن من عادى واحداً منهما فقد عادة الآخر، وعادى الله أيضاً، ولأنه أيضاً ينزل على أنبياء الله بعض الأحيان كما قرن برسول الله (ص) في ابتداء الأمر، ولكن جبرائيل أكثر وهي وظيفته، وميكائيل موكل بالنبات والقطر. هذا بالهدى وهذا بالرزق، كما أن إسرافيل موكل بالنفخ في الصور للبعث يوم القيامة، ولهذا جاء في الصحيح أن رسول الله (ص) كان إذا قام من الليل يقول: ((اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختُلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم)). عن ابن عباس قال: إنما كان قوله جبرائيل

كقوله عبدالله وعبد الرحمن، وقيل جبر: عبد، وإيل، الله. وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾.

﴿وَلَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖۖ وَمَا يَكۡفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ البقرة: ٩٩.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖۖ﴾ أي: أنزلنا إليك يا محمد علامات واضحات، دالات على نبوّتك، وتلك الآيات هي ما حواه كتاب الله من خفايا علوم اليهود، ومكنونات سرائر أخبارهم، وأخبار أوائلهم من بني إسرائيل، والنبأ عما تضمنته كتبهم التي لم يكن يعلمها إلاَّ أحبارهم وعلماؤهم، وما حرّفه أوائلهم واواخرهم وبدلوه من أحكامهم التي كانت في التوراة، فأطلع الله في كتابه الذي أنزله على نبيّه محمد (ص)، فكان في ذلك من أمره الآيات البينات لمن أنصف من نفسه، ولم يدعها إلى هلاكها الحسد والبغي. عن ابن عباس قال: قال ابن صوريا القطويني لرسول الله (ص): يا محمد ما جئتنا بشيء نعرفه، وما أنزل الله عليك من آية بينة فتتبعك، فأنزل الله في ذلك: ﴿وَلَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖۖ وَمَا يَكۡفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾.

ـ الشيخ مغنية:

﴿وَلَمَّا جَآءَهُمۡ كِتَٰبٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمۡ وَكَانُواْ مِن قَبۡلُ يَسۡتَفۡتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٨٩ بِئۡسَمَا ٱشۡتَرَوۡاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمۡ أَن يَكۡفُرُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغۡيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٖۚ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٞ مُّهِينٞ ٩٠ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ نُؤۡمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا وَيَكۡفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَهُمۡۗ قُلۡ فَلِمَ تَقۡتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبۡلُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾

البقرة: ٨٩ - ٩١

اللغة: يستفتحون أي يستنصرون، ومعنى اشتروا واضح، وهو قبول المبيع، ولكن المراد به هنا الإيجاب، أي باعوا به أنفسهم.

الإعراب: مصدق صفة كتاب، وجواب لها الأولى محذوف دل عليه جواب لها الثانية، وهو كفروا به بئس للذم، ونعم للمدح، وإذا كان الاسم بعدهما محلى بالألف واللام فهو فاعل أبداً، نحو نعم الرجل زيد، وبئس الرجل زيد، وزيد مبتدأ، خبره جملة بئس الرجل، أو نعم الرجل. وإذا كان ما بعدها نكرة، مثل نعم رجلاً، وبئس رجلاً فهو منصوب أبداً على التمييز، وفاعل نعم وبئس ضمير مستتر يفسره التمييز، وإن اتصلت بهما (ما) مثل نعما وبئسما فإن كانت (ما) بمعنى الشيء فهي فاعل، وإن كانت بمعنى (شيئاً) فهي تمييز. وعليه يجوز أن تكون (ما) في بئسما في الآية اسماً موصولاً مرفوعاً على أنها فاعل بئس، وجملة اشتروا صلة، ويجوز أن تكون (ما) نكرة بمعنى (شيئاً) وجملة اشتروا صفة، وعلى التقديرين فإن المصدر المنسبك من (أن يكفروا) محله الرفع بالابتداء، وجملة بئسما خبر.. وبغياً مفعول من أجله، والمصدر من (أن ينزل) منصوب بنزع الخافض، أي لأن ينزل.

المعنى: كان يهود المدينة يستنصرون على الأوس والخزرج بمحمد (ص) قبل مبعثه، ويقولون لهم: غداً يأتي النبي الذي وجدنا صفاته في التوراة، ويتغلب على جميع العرب والمشركين، وكانوا يعتقدون أنه إسرائيلي، لا عربي، فلمّا بعث الله محمداً من العرب، لا من شعب اليهود استنكفوا وأخذتهم العنصرية والعصبية وجحدوا نبوته، وأنكروا ما كانوا يقولونه فيه. فقال لهم بعض الأوس والخزرج: يا معشر اليهود كنتم بالأمس تهدّدوننا بمحمد (ص)، ونحن أهل الشرك وتصفونه، وتذكرون أنه المبعوث، فها نحن آمنا به، ونكصتم أنتم وتراجعتم، فما عدا مما بدا؟

فأجاب اليهود: ما جاءنا بشيء نعرفه، وما هو بالذي كنّا نذكره لكم، فأنزل الله سبحانه ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ ﴾ أي لمّا جاءهم القرآن كفروا به، فحذف جواب لها هذه، وهو كفروا به لدلالة جواب لما الثانية عليه، والقرآن الذي كفروا به فيه تصديق لما تضمنته توراتهم من التبشير بمحمد (ص). فهم في النتيجة يكذّبون بذلك من يصدقهم بل يكذبون أنفسهم، وليس هذا بغريب ولا عجيب على من يتّخذ من عاطفته وذاته مقياساً للتحليل والتحريم، والتصديق

والتكذيب. وكل من يحلّل لنفسه ما يُحرِّمه على الغير فهو من هذا النوع.

﴿ وَكَانُواْ مِن قَبۡلُ يَسۡتَفۡتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ ﴾كان اليهود قبل البعثة يستنصرون ويُنذرون الأوس والخزرج بمحمد (ص)، فلمّا جاء انعكست الآية، فآمن به الأوس والخزرج، وناصروه على أعدائه حتى سمّوا الأنصار، وكفر به اليهود فكان هلاكهم وتشريدهم على يد الأنصار بواسطة محمد، وهو نفس المصير الذي كانوا يرقبونه وينذرون به الأنصار على يدهم بواسطة محمد (ص). وهكذا يُحيقُ المكرُ السيّئ بأهله، وتنزل الويلات على رأس من تمناها لغيره. وتسأل: لماذا انقلب اليهود، وتحولوا من الإيمان بمحمد (ص) قبل البعثة إلى الكفر به بعده؟

الجواب: كانوا يعتقدون أنه يأتي إسرائيلياً من نسل اسحق قياساً على كثرة ما جاء من الأنبياء الإسرائيليين، فلما رأوه عربياً من نسل إسماعيل أنكروه حسداً وتعصباً للعنصرية اليهودية.. وكل من أنكر الحق تعصباً للعرق أو لغيره فهو تماماً كهؤلاء اليهود الذين رفضوا الاعتراف بمحمد لا لشيء إلاّ لأنّه عربي.

﴿ بِئۡسَمَا ٱشۡتَرَوۡاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمۡ أَن يَكۡفُرُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾ يستعمل القرآن الكريم كثيراً لفظ البيع والشراء والتجارة في العمل الصالح والطالح. ذلك أن الإنسان إذا آمن وعمل صالحاً فكأنه قد دفع الثمن لخلاص نفسه ونجاتها وإذا كفر وانحرف لمنفعة عاجلة فكأنه قد باع نفسه للشيطان بأبخس الأثمان واشتروا هنا بمعنى باعوا، أي أن اليهود باعوا أنفسهم للشيطان، وألقوا بها إلى التهلكة ولا ثمن لنفوسهم الهالكة إلا الحسد والتعصب للجنسية اليهودية. ولذا قال سبحانه: ﴿ بَغۡيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ ﴾ أي كفروا بمحمد (ص) لا لشيء إلا لأنهم يريدون أن يحصروا الوحي والفضل فيهم وحدهم، ولا يقبلون من الله، ولا من غيره إلا ما يوافق أهواءهم ومنافعهم.. فهم إذن يستحقون عقابين وغضبين: عقاباً على كفرهم، وآخر على أنانيتهم وتعصبهم.

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾ أي آمنوا بالوحي من حيث هو وحي

بصرف النظر عن شخصية المبلّغ نفسه ونسبه، لأن الرسول ما هو إلا وسيلة للتبليغ، أما شرطكم للإيمان بالوحي أن ينزل على شعب إسرائيل فقط، وإذا أنزل على غيره فلا تؤمنون به ـ أما هذا الشرط فيكشف عن عدم إيمانكم بالوحي كمبدأ، بالإضافة إلى أنه تحكم على الله وتقييد لإرادته بأهوائكم، ومعنى هذا أنكم تريدون من الله أن يخضع لكم، وتأبون الخضوع له.

﴿ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ﴾ وهذا اعتراف صريح بأنهم لا يؤمنون، ولن يؤمنوا إلا بالوحي على شريطة أن ينزل عليهم، ولا يؤمنون بما ينزل على غيرهم، ولو قام عليه ألف دليل ودليل.

﴿ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ ولا إلزام أقوى وأبلغ من الإلزام بهذه الحجة. أي قل يا محمد لليهود: أنتم كاذبون في زعمكم ودعواكم الإيمان بخصوص الوحي المنزل على شعب إسرائيل، بل أنتم لا تؤمنون بالوحي إطلاقاً، حتى بما أنزل عليكم بالخصوص، والدليل أن الله أرسل منكم ولكم وفيكم أنبياء، وفرض عليكم تصديقهم وطاعتهم، ومع ذلك فريقاً كذبتم كعيسى، وفريقاً تقتلون كزكريا، ويحيى، وإن دلّ هذا على شيء فإنما يدل على كذبكم، ومناقضة أفعالكم لأقوالكم، وتكذيب أنفسكم لأنفسكم.. وصح توجيه الخطاب بالقتل إلى يهود المدينة، ومشافهتهم به، مع أن القاتل أسلافهم لمكان وحدة الأمة، ومشاركة الراضي بالقتل لفاعله، كما تقدم.

﴿ وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ

حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمۡ لَوۡ يُعَمَّرُ أَلۡفَ سَنَةٖ وَمَا هُوَ بِمُزَحۡزِحِهِۦ مِنَ ٱلۡعَذَابِ أَن يُعَمَّرۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ ﴾ البقرة: ٩٢ -٩٦

المعنى: هذه الآيات واضحة الدلالة، ظاهرة المعنى، وأيضاً فيها تكرار لما سبق، ولذا نكتفي بذكر المعنى العام لها.

أمر الله نبيه أن يجادل المخالفين بالحسنى: ومعنى الجدال بالحسنى مخاطبة القلب والعقل، وكل حجاج القرآن من هذا النوع.. فلقد دعا الجاحدين إلى التفكر في أنفسهم، وفي خلق السموات والأرض، وقال لمن نسب السيد المسيح إلى الألوهية: أنه وأمّه كانا يأكلان الطعام، وخاطب قلوب اليهود بهذه الآيات، حيث ذكرتهم بنعمة الله عليهم بالتوراة، فيها الهدى والنور، كما ذكرتهم آيات سابقة بخلاصهم وتحررهم من فرعون، وما إلى ذلك، ثم وبّخهم الله بعبادة العجل كفراً وجحوداً لنعمته، وكرّر ذكر رفع الجبل فوقهم لتمرّدهم وعصيانهم، وكذّب بمنطق العقل دعواهم أنهم أبناء الله وأحباؤه، وأن الجنة خالصة لهم لا يدخلها أحد غيرهم، وأمرهم ـ إن كانوا صادقين ـ بتمني الموت، لأن من اعتقد أنه للجنة قطعاً آثر الموت المريح على حياة البلاء والشقاء.

ثم أخبر القرآن أن اليهود أشد الناس حرصاً على حياة الدنيا، بل هم أحرص عليها من الذين لا يؤمنون بجنة ولا نار، بل إن الواحد منهم يتمنى لو عاش ألف سنة، ولكنّ تعميره لا يجديه شيئاً، ولا ينجيه من العذاب. والغرض من الجدال بهذا المنطق العقلي السليم هو إلزام اليهود الحجّة بأنهم كاذبون في دعواهم الإيمان بالتوراة، وفي زعمهم بأنهم شعب الله المختار. قال الشيخ المراغي في تفسيره: «جاء في الأخبار أن عبدالله بن رواحة كان ينشد وهو يقاتل الروم: يا حبذا الجنة واقترابها طيبة باردةٌ شرابها.

وإن عمار بن ياسر في حرب صفين قال: غداً نلقى الأحبة محمداً وصحبه.

فإن لم يتمنّ اليهود الموت فما هم بصادقي الإيمان، وهذه حجة تنطبق على الناس عامة، فيجب على المسلمين أن يجعلوها ميزاناً يزنون بها دعواهم اليقين

بالإيمان، والقيام بحقوق الله، فإن ارتاحت نفوسهم لبذل أرواحهم في سبيل الله كانوا مؤمنين حقاً، وإن ضنّوا بها إذا جد الجد ودعا الداعي كانوا بعكس ما يدعون.

قوله تعالى: ﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ ﴾

إشعار بهذه الحقيقة، وما عدا هذه الآية الكريمة من المحاجة إنما جرت معهم مجرى النقاش، والإلزام بالحجة، تماماً كما تقول: لو سلمنا جدلاً.

﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ البقرة: ٩٧ - ٩٩.

اللغة: قيل: معنى جبريل عبدالله، ومعنى ميكال عبيد الله.. ومعنى النبذ الطرح.

الإعراب: جبريل وميكال ممنوعان من الصرف للعلمية والعجمة.. وقال صاحب مجمع البيان، وصاحب البحر المحيط: (إن جواب من كان عدواً لجبريل) محذوف تقديره فهو كافر، أو ما أشبه وقد دل عليه الموجود، وعلله صاحب البحر بأن الجواب لا بد أن يكون فيه ضمير يعود على (من) التي هي اسم الشرط، وقوله تعالى: ﴿ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ ﴾ ليس فيه ضمير يعود على من، لأن ضمير (فإنه) عائد على جبريل، وضمير (نزّله) عائد على القرآن.. ومصدقاً حال من الضمير في نزّله، وهدى وبشرى معطوفان عليه.. والهمزة في (أوكلما) للتوبيخ، والواو للعطف، والمعطوف عليه محذوف تقديره أكفرتم بالبينات. وقيل: بل الواو زائدة، لأن المعنى مستقيم بدونها، وكلما منصوب على الظرفية واكتسبت هذه الظرفية من (ما) التي هي اسم بمعنى وقت، كما في المغني اللبيب، والتقدير كل وقت عاهدوا فيه، والظرف متعلق بنبذه.

المعنى: ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ ﴾.. أي فهو كافر عليه لعنة الله.. وأجمع

أهل التفسير على أن سبب نزول هذه الآية أن اليهود سألوا النبي (ص) عن المَلَك الذي ينزل عليه بالوحي؟ فقال: هو جبريل. قالوا: ذاك عدونا، لأنه ينزل بالشدة والحروب، وميكال بالسلام، والرخاء، ولو كان ميكال هو الذي يأتيك بالوحي لآمنا بك.

لقد جعلوا النزاع في ظاهره أولاً حول شخصية محمد (ص)، وأنهم يريدون نزول الوحي على واحد من شعب إسرائيل، لا من شعب العرب ـ كما زعموا ـ ولما ألزمهم الله ونبيه بالحجة حوّلوا النزاع إلى شخص جبريل، لا محمد... والحقيقة ـ كما قدمنا ـ أنه لا نزاع على محمد وجبريل، ولا عرب وعروبة، ولا يهود ويهودية، لا شيء أبداً إلا مصالحهم الذاتية. إلا الدعارة والخمر والربا والاحتكار.. ولكنهم ينافقون، ويتستّرون بالأكاذيب والأباطيل. ومن باب النقاش والإلزام بالحجة قال سبحانه: ﴿ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ أي إن عداوتكم لجبريل لا وجه لها، لأنه مجرد أداة وواسطة لتبليغ الوحي من الله إلى محمد.. وهذا الوحي يشتمل على تصديق ما تضمنته توراتكم من صفات محمد وعلامات نبوته، وفي الوقت نفسه هو هدى وبشرى للمؤمنين، وعليه يكون معنى عدائكم لجبريل عداء لله وللوحي وللتوراة، ولهدى الله لخلقه، وبشراه للمؤمنين.

﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ أي إن ما أتى به محمد (ص) لا يقبل الشك بعد أن اقترن بالحجج والبراهين، ولا ينكره إلا كافر بالله، معاند للحق والمراد بالفسق هنا فسق العقائد، أي الكفر، لا فسق الأفعال الذي يجتمع مع الإيمان.

ـ سيد قطب:

﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ البقرة: ٨٩

وهو تصرّف يستحق الطرد والغضب لقبحه وشناعته.. ومن ثم يصب عليهم

اللعنة ويصمهم بالكفر: ﴿ فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾.

ويفضح السبب الخفي لهذا الموقف الشائن الذي وقفوه، بعد أن يقرر خسارة الصفقة التي اختاروها.

﴿ بِئۡسَمَا ٱشۡتَرَوۡاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمۡ أَن يَكۡفُرُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغۡيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٖۚ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴾ البقرة: ٩٠.

لكأن هذا الكفر هو الثمن المقابل لأنفسهم! والإنسان يعادل نفسه بثمن ما، يكثر أو يقلّ أمّا أن يعادلها بالكفر فتلك أبأس الصفقات وأخسّرها ولكن هذا هو الواقع. وإن بدا تمثيلاً وتصويراً. لقد خسروا أنفسهم في الدنيا فلم ينضموا إلى الموكب الكريم العزيز، ولقد خسروا أنفسهم في الآخرة بما ينتظرهم من العذاب المهين. وبماذا خرجوا في النهاية؟ خرجوا بالكفر، هو وحده الذي كسبوه وأخذوه!

هذه الطبيعة التي تبدو هنا في اليهود هي الطبيعة الكنود، طبيعة الأثرة الضيقة التي تحيا في نطاق من التعصب الشديد، وتحس أن كل خير يصيب سواها كأنّما هو متقطع منها، ولا تشعر بالوشيجة الإنسانية الكبرى، التي تربط البشرية جميعاً.. وهكذا عاش اليهود في عزلة يحسون أنهم فرع مقطوع من شجرة الحياة، ويتربصون بالبشرية الدوائر، ويكنون للناس البغضاء، ويعانون عذاب الأحقاد والضغائن، ويذيقون البشرية رجع هذه الأحقاد فِتناً يوقدونها بين بعض الشعوب وبعض، وحروباً يثيرونها ليجروا من ورائها المغانم، ويردون بها أحقادهم التي لا تنطفئ، وهلاكاً يسلطونه على الناس، ويسلطه عليهم الناس.. وهذا الشر كله إنما نشأ من تلك الأثرة البغيضة: ﴿ بَغۡيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ ﴾.

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ نُؤۡمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا وَيَكۡفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَهُمۡ ﴾ .

وكان هذا هو الذي يقولونه إذ دعوا إلى الإيمان بالقرآن وبالإسلام. كانوا يقولون ﴿ قَالُواْ نُؤۡمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ﴾.

ففيه الكفاية، وهو وحده الحق، ثم يكفرون بما وراءه سواءٌ ما جاءهم به عيسى (ع)، وما جاءهم به محمد خاتم النبيين.

والقرآن يعجب من موقفهم هذا، ومن كفرهم بما وراء الذي معهم: ﴿ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ﴾ وما لهم وللحق؟ وما لهم أن يكون مصدقاً لما معهم! ما داموا يستأثروا به؟ إنهم يعبدون أنفسهم ويتعبدون لعصبيتهم. لا بل إنهم ليعبدون هواهم، فلقد كفروا من قبل بما جاءهم أنبياؤهم به ويُلقّن الله نبيه (ص) أن يجبههم بهذه الحقيقة، كشفاً لموقفهم وفضحاً لدعواهم: ﴿ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾.

لم تقتلون أنبياء الله من قبل، إن كنتم حقاً تؤمنون بما أُنزل إليكم؟ وهؤلاء الأنبياء هم الذين جاؤوكم بما تدعون أنكم تؤمنون به؟

لا بل إنكم كفرتم بما جاءكم به موسى (ع) نبيكم الأول ومنقذكم الأكبر:

﴿ وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾

فهل اتخاذكم العجل من بعد ما جاءكم موسى بالبينات، وفي حياة موسى نفسه، كان من وحي الإيمان؟ وهل يتفق هذا مع دعواكم أنكم تؤمنون بما أُنزل إليكم؟!

ولم تكن هذه هي المرّة الوحيدة، بل كان هناك الميثاق تحت الصخرة، وكان هناك التمرّد والمعصية: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ﴾.

والسياق هنا يلتفت من الخطاب إلى الحكاية.. يخاطب بني إسرائيل بما كان منهم، ويلتفت إلى المؤمنين وإلى الناس جميعاً، فيُطلعهم على ما كان منهم.. ثم يُلقّن الرسول (ص) أن يجبههم بالترذيل والتبتيع لهذا اللون من الإيمان العجيب الذي يدعونه إن كان يأمرهم بكل هذا الكفر الصريح: ﴿ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾.

ونقف هنا لحظة أمام التعبيرين المصورين العجيبين: ﴿ قَالُواْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا ﴾ ﴿ وَأُشْرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ﴾.

إنهم قالوا: سمعنا، ولم يقولوا عصينا! ففيم إذن حكاية هذا القول عنهم هنا؟ إنه التصوير الحي للواقع الصامت كأنه واقع ناطق، لقد قالوا بأفواههم: سمعنا. وقالوا بأعمالهم: عصينا. والواقع العملي هو الذي يمنح القول الشفوي دلالته، وهذه الدلالة أقوى من القول المنطوق وهذا التصوير الحي للواقع يومئ إلى مبدأ كلي من مبادئ الإسلام؛ إنّه لا قيمة لقول بلا عمل، إن العمل هو المعتمد أو هي الوحدة بين الكلمة المنطوقة والحركة الواقعة، وهي مناط الحُكم والتقدير.

فأما الصورة الغليظة التي ترسمها: ﴿ وَأُشْرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ ﴾ فهي صورة فريدة لقد أشربوا بفعل فاعل سواهم أشربوا ماذا؟ أشربوا العجل! وأين أشربوه؟ أشربوه في قلوبهم! ويظل الخيال يتمثل تلك المحاولة العنيفة الغليظة، وتلك الصورة الساخرة الهازئة صورة العجل يدخل في القلوب! إدخالاً ويُحشر فيها حشراً، حتى ليكاد ينسى المعنى الذهني الذي جاءت هذه الصورة المجسّمة لتؤديه، وهو حبهم الشديد لعبادة العجل، حتى لكأنهم أشربوه إشراباً في القلوب! هنا تبدو قيمة التعبير القرآني المصور، بالقياس إلى التعبير الذهني المفسّر.. إنّه التصوير.. السمة البارزة في التعبير القرآني الجميل.

ثم لقد كانوا يطلقونها دعوى عريضة.. إنهم شعب الله المختار، إنّهم وحدهم المهتدون إنهم وحدهم الفائزون في الآخرة. إنه ليس لغيرهم من الأمّم من الآخرة عند الله نصيب.

﴿ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾

ويعقب على هذا التحدّي بتقرير أنّهم لن يقبلوا المباهلة، ولن يطلبوا الموت لأنّهم يعلمون أنهم كاذبون ويخشون أن يستجيب الله فيأخذهم، وهم يعلمون أن ما قدّموه من عمل لا يجعل لهم نصيباً في الآخرة . وعندئذ يكونون قد خسروا الدنيا

بالموت الذي طلبوه وخسروا الآخرة بالعمل السيئ الذي قدموه، ومن ثم فإنهم لن يقبلوا التحدي فهم أحرص الناس على حياة وهم المشركون.

﴿ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ لن يتمنوه لأن ما قدمته أيديهم للآخرة لا يطمّعهم في ثواب، ولا يؤمنهم من عقاب إنه مدّخر لهم هناك، والله عليم بالظالمين وما كانوا يعملون.

وليس هذا فحسب، لكن هناك خصلة أخرى في اليهود، خصلة يصوّرها القرآن صورة تفيض بالرزاية وتنضح بالتحقير والمهانة: ﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ ﴾أية حياة لا يهم أن تكون حياة كريمة ولا حياة مميّزة على الإطلاق! حياة فقط! حياة بهذا التنكير والتحقير! حياة ديدان أو حشرات! حياة والسلام إنها اليهودية في ماضيها وحاضرها ومستقبلها سواءٌ. وما ترفع رأسها إلاّ حين تغيب المُطرقة، فإذا وجدت المطرقة نكست الرؤوس، وعنَت الجباه جبناً وحرصاً على الحياة.. أي حياة!

﴿ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾

يود أحدهم لو يعمر ألف سنة. ذلك أنهم لا يرجون لقاء الله، ولا يحسّون أن لهم حياة غير هذه الحياة وما أقصر الحياة الدُنيا وما أضيقها حين تحس النفس الإنسانية أنها لا تتصل بحياة سواها ولا تطمع في غير أنفاس وساعات على الأرض معدودة.

ويمضي السياق بتلقين جديد من الله لرسول (ص) يتحداهم به، ويُعلن الحقيقة التي يتضمنها: ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ ﴾.

وفي قصة هذا التحدي نطلّع على سمة أخرى من سمات اليهود سمة عجيبة حقاً..

لقد بلغ هؤلاء القوم من الحنق والغيظ من أن يُنزّل الله من فضله على من يشاء من عباده مبلغاً يتجاوز كل حد، وقادهم هذا إلى تناقض لا يستقيم في عقل.. لقد سمعوا أن جبريل ينزل بالوحي من عند الله.. على محمد (ص)، ولما كان عداؤهم لمحمد قد بلغ مرتبة الحقد والحنق فقد لجّ بهم الضغن أن يخترعوا قصة واهية وحجّة فارغة، فيزعموا أن جبريل عدوهم، لأنّه ينزّل بالهلاك والدمار والعذاب، وأن هذا هو الذي يمنعهم من الإيمان بمحمد من جراء صاحبه جبريل! ولو كان الذي ينزل إليه الوحي هو ميكائيل لآمنوا، فميكائيل يتنزّل بالرخاء والمطر والخصب، ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ فما كان له من هوى شخص، ولا إرادة ذاتية في أن ينزله على قلبك، إنما هو منفذ لإرادة الله. وإذنه في تنزيل هذا القرآن على قلبك، والقلب هو موضع التلقي وهو الذي يفقه بعد التلقي ويستقر هذا الكتاب منه ويحفظن والقلب يعبّر به في القرآن عن قوة الإدراك جملة وليس هو هذه العضلة المعروفة بطبيعة الحال.

﴿ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾

والقرآن يصدّق في عمومه ما سبقه من الكتب السماوية، فأساس دين الله واحد في جميع الكتب السماوية، وجميع الديانات الإلهية.. وهو هدى وبشرى للقلوب المؤمنة التي تتفتح له وتستجيب.. وهذه حقيقة ينبغي إبرازها.. إن نصوص القرآن لتسكب في قلب المؤمن من الإيناس، وتفتح له من أبواب المعرفة، وتفيض فيه من الإيحاءات والمشاعر ما لا يكون بغير الإيمان. وكذلك نجد القرآن يكرّر هذه الحقيقة من مناسبات شتى﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ البقرة: ٢ ﴿ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾القصص: ٣ وبنوا إسرائيل لم يكونوا يؤمنون أو يتقون أو يوقنون!

ـ وكانوا كعادتهم في تفريق الدين وتفريق الرُسل، قد فرقوا بين ملائكة الله الذين يسمعون أسماءهم وأعمالهم، فقالوا: إنهم على صداقة مع ميكائيل أمّا مع جبريل فلا! كذلك جُمعت الآية التالية جبريل وميكائيل وملائكة الله ورسله؛ لبيان وحدة الجميع ولإعلان أنّ من عادى أحداً منهم فقد عاداهم جميعاً وعادى الله سبحانه

وتعالى.

﴿ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴾

ثم يتّجه الخطاب إلى الرسول (ص) يثبته على ما أُنزل عليه من الحق وما آتاه من الآيات البينات، مقرراً أنه لا يكفر بهذه الآيات إلاّ الفاسقون المنحرفون. ويندّد ببني إسرائيل الذين لا يستقيمون على عهد سواء عهودهم مع ربهم وأنبيائهم من قبل، أو عهودهم مع رسول الله (ص).

﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾

لقد كشف القرآن هنا عن علّة كُفر بني إسرائيل بتلك الآيات البينات التي أنزلها الله إنّه الفسوق وانحراف الفطرة، فالطبيعة المُستقيمة لا يسعها إلاّ الإيمان بتلك الآيات وهي تفرض نفسها فرضاً على القلب المستقيم فإذا كفر بها اليهود فليس هذا لأنهم لا مقنع فيها ولا حجّة، ولكن لأنّهم هم فاسدوا الفطرة فاسقون.

ـ السيد فضل اللّه:

﴿ يَسْتَفْتِحُونَ ﴾ كان اليهود قبل الرسالة، يطلبون الفتح والنصر على الكافرين الوثنيين المُقيمين في المدينة عند اشتداد المشاكل والخلافات فيما بينهم وشعورهم بالضعف أمام قوّة الآخرين، ويقولون لهم: إنّنا سنكون في موقف القوّة عند ظهور النبي الموعود في هذه البلاد، فنقتلكم ونهلككم لأنه سيكون معنا فينصرنا عليكم، وهذا ما عبّرت عنه الآية الكريمة.

﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ ﴾

لأنّ الرسالة الإسلامية كبقية الرسالات التي سبقتها، لم تأتِ لتنسق الرسالات المتقدّمة أو تنسخها بل لتكملها، ولذا جاء الحديث المأثور عن النبي (ص): «إنّما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق» وروى عن عيسى (ع) أنه قال: «جئت لأكمل الناموس...».

﴿ وَكَانُواْ مِن قَبۡلُ يَسۡتَفۡتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ بالنبي وبالرسالة.

﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ ﴾ من الرسالة في ما سمِعوه من آياتها وعرِفوه من شرائعها، ورأوا الانسجام واضحاً بينها وبين ما لديهم من التوراة، وأيقنوا الحق في موقف النبي ودعوته ﴿ كَفَرُواْ بِهِۦ ﴾وجحدوه بغياً وحسداً وعدواناً.

﴿ فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ لأنهم ابتعدوا عن الله بعد أن عرفوا طريقة، فأبعدهم الله عنه.

﴿ بِئۡسَمَا ٱشۡتَرَوۡاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمۡ ﴾ والشراء هنا بمعنى البيع، كما في قوله تعالى ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴾ البقرة: ٢٠٧.

﴿ أَن يَكۡفُرُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغۡيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ ﴾ فهم لم يكفروا لشُبهة عرضت لهم أو لعدم وضوح الحق لديهم، بل كان الكُفر كُفر عدوان وعناد وحّسد لأنّهم عرفوا من تعاليم الإسلام ومن مواقف النبي (ص) أنه لا يمنحهم أي امتياز يميزهم عن سائر المسلمين، فشعروا بأنهم سيتحولون مع هذا الدين الجديد إلى اتباع عاديين، وبذلك يفقدون المواقع التي كانوا فيها والامتيازات التي حصلوا عليها.

﴿ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٖۚ ﴾ الغضب الأول ما واجهوه عند تمرّدهم على موسى وعلى الأنبياء من بعده قبل النبي محمد (ص) والغضب الثاني عندما تمرّدوا على النبي محمد (ص).

﴿ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴾ في الآخرة.

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾ فهذا كتاب الله أمامكم فآمنوا به.

﴿ قَالُواْ نُؤۡمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ﴾ فنحن أصحاب كتاب سماوي أنزل الله علينا، فلا حاجة لنا بغيره لأنه يحقق لنا الكفاية في ما نحتاجه من أمور الدنيا والآخرة.

﴿ وَيَكۡفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ ﴾ من الكتب السماوية من الإنجيل والقرآن.

﴿ وَهُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَهُمۡ ﴾ وبذلك كان الإيمان بكتابهم مستلزماً للإيمان

بالقرآن لأنه يصدق التوراة في تعاليمها.

﴿ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ وهم الأنبياء الذين جاؤوا من بعد موسى، يحملون رسالته، ويدعون الناس إلى العمل بالكتاب، ويعتبرون امتداداً طبيعياً له؟ ولم يقتصر الموقف المعاند على هؤلاء الأنبياء، فماذا عن موقفكم من موسى الذي جاء بالكتاب؟

﴿ وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾

لأنفسكم في عبادتكم لغير الله مع أن موسى قد دعاكم إلى عبادة الله الواحد الأحد.

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ ﴾ بعد إنزال الكتاب.

﴿ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ ﴾ الجبل، حتى ظلّلنا عليكم به في طريقة إعجازية، وقلنا لكم في مجال دعوتكم إلى حمل المسؤولية تجاه أنفسكم وتجاه الناس.

﴿ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ ﴾ وقناعة ويقين وعزيمة لا ضعف فيها.

﴿ وَٱسْمَعُوا۟ ﴾ سماع وعيّ في الإيمان وطاعة في العمل، فماذا كان الجواب؟

﴿ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا ﴾ لقد سمعنا كل ما قلت، ولكنّنا غير مستعدين للانسجام معك في واقعنا العملي، لأننا لا نُريد تغيير واقعنا وعاداتنا وأوضاعنا التي تلتقي بأطماعنا وشهواتنا ومواقعنا في الحياة.

﴿ وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ﴾ فلا تزال ذكريات العجل تعيش في وجدانهم وقلوبهم ولا يزال حبّه يجري في مشاعرهم مجرى الدم في العروق، وهنا يوحي القرآن في أسلوبه بالمرارة والسخرية منهم في دعواهم الإيمان بما أنزل عليهم.

﴿ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ فإذا كان إيمانكم يأمركم بقتل الأنبياء وعبادة العجل وإنكار الحق؛ فبئس هذا الاتجاه الإيماني الغريب في ما يقرّبه، ممّا يُضادّ معناه وحيويته، ولكن الحقيقة هي أنكم غير مؤمنين، لأن

للإيمان وحيه الطاهر الذي يملأ روح الإنسان بالخير ويحرّك طاقاته في طريق الطاعة والعبادة والحق والإصلاح.

﴿ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً ﴾ من كل محاسبة ومسؤولية.

﴿ مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ ﴾ الذين يحاسبون على كل ما عملوا من صغير وكبيرة.

﴿ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾لأن الدار الآخرة للمؤمنين في التفكير الديني نعيم لا بؤس فيه، وسعاده لا شقاء معها، فهي الحياة المِثالية التي هي أعلى مستوى للحياة، لأنها تحقق للإنسان كل أحلامه بل فوق أحلامه، كما ورد في الحديث المأثور عن الجنة فيها: «ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر».

فإذا كانت لكم هذه المنزلة الرفيعة التي تمنحكم قبل هذه الحياة عند الله فتمنوا الموت الذي ينقلكم إليها من دون جهد أو تعب، فإن الإنسان يتمنّى المستوى الأفضل للحياة بشكل طبيعي.

﴿ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ فهم يعرفون ما قدموا من جرائم يحاسبون عليها يوم القيامة، فيتعرضون من أجلها لأقصى أنواع العقاب، فكيف يتمنون الموت بعد ذلك؟!﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴾.

﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ ﴾

أحرص الناس على حياة، مهما كانت ذليلة أو غير مسؤولة، هؤلاء الذين يعتبرون الحياة الدنيا نهاية المطاف والفرصة الأخيرة للاستمتاع أنهم لا يحرصون على هذه الحياة كما يحرُص عليها اليهود.

﴿ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ ليبتعد عن أشباح الجريمة والعقاب التي تلاحقه في يقظته ومنامه، ولكن ما فائدة الألف سنة من العمر لو عمّر ألف سنة؟! إن النتيجة الحاسمة ستكون أمامه.

﴿ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ﴾ لأنه سيلتقي بالعذاب وجهاً لوجه على أساس ما جنته يداه ﴿ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾.

﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴾.

معاني المفردات:

﴿ وَبُشْرَىٰ ﴾: البشارة: الخبر يؤثر في البشرة تغيراً، وهذا يكون للحزن أيضاً، ولكن غلب استعماله في ما يُفرح.

﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ ﴾. الذي هو الملك المقرّب عند الله، المُكلف بنقل رسالته إلى أنبيائه ولا سيما النبي محمد (ص).

﴿ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ ليكون وعيك له في عقلك فتحفظه وتتفهم معانيه.

﴿ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ من الكُتب المُنزلة على الرُسل السابقين، لأن القرآن لم يأت ناسخاً لما في الكُتب كلّها، ولكنه جاء مُعترفاً بها ومصدقاً لما فيها ومكمّلاً لما يحتاجه الناس ممّا استجد من قضايا ومشاكل بعد نزولها، فإن قيمة الرسالات الإلهية ـ في مضمونها الفكري ـ يلتقي بعضها مع بعض لتكون حقاً.

﴿ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ في ما ينتظرهم من النتائج الطيبة بالتزامهم بما فيها في حياتهم العملية فإذا كان جبريل برسالته الإلهية التي نزلها على قلبك، ممّا يوحي باصطفاء الله له في حمل الرسالة إليك من بين الملائكة، وإذا كان قد جاء بها بإذن الله لا من خلال نفسه، فإن المفروض أن يكون في موقع الأعزاز والمحبة والتقدير لدى المؤمنين، لأن الإنسان المؤمن يحب من يحب الله ويبغض من أبغضه، فكيف تجمعون بين حكم الله وعداوتكم لحبيبه جبريل؟!

﴿ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴾

لأنّ الله يُريد من عباده الإيمان به وبكل ملائكته ورُسله، وبجبريل وميكال،

والتقدير لهم باعتبار أن الإيمان بالحق يُمثّل وحدة في المضمون، كما أنه يُمثّل وحدة في الالتزام، ممّا يعني أن إنكار بعض مفرداته يؤدي إلى الكفر الذي يعطي صاحبه صفة الكافر الذي لا بد له من أن يُعد نفسه للوقوع تحت سيطرة عداوة الله له.

يتحدّث التاريخ القرآني أنّ النبي (ص) شاهد جبريل مرتين في عروجه إلى السماء بهيئته الأصلية، كما ورد ذلك في تفسير سورة النجم. وينقل صاحب «تفسير الأمثل» عن بعض المحققين أن المصادر اليهودية خالية من الدلالة على خصومة جبرائيل لهؤلاء القوم وهذا يوحي بأنّ المسألة لم تكن (لدى هؤلاء المعاصرين للنبي) منفصلة في الجانب العقيدي، بل هي حركة طفولية مشاغبة لتبرير مواقفهم المُضادة للإسلام وتقديم شيء أمام ذلك.

أما ميكال فقد اقتصر ذكره على هذا المورد وفي هذه الآية دلالة على قربه من الله وتعظيم الله له حتى اعتبرت عداوته كفراً.

ففي هذه الآيات يؤكّد تعالى أن العداوة لله وللملائكة ومنهم جبريل وميكال وللرسُل تستوجب الكفر في مدلولها السلبي في رفض الالتزام بالأسّس التي يقوم عليها الإيمان، وتؤدي بالتالي إلى عداوة الله لهم متمثّلة في سخطه وعقابه. أمّا بالنسبة إلى عداوة الله فواضح، وأمّا بالنسبة إلى عداوة الأنبياء والملائكة، فلأنهم لا يُمثّلون أنفسهم في ما يدعون إليه أو يفيضون فيه بل ينطلقون في سلوكهم من موقع علاقتهم بالله وقربهم منه، ممّا يجعل من عداوتهم عداوة الله وحده.

﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾

معاني المفردات:

﴿نَّبَذَهُۥ﴾ طرحه ورمى به وألقاه.

﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ﴾ في هذا القرآن الذي بين يديك، في وضوح الفكرة فيها، وعمق الحجّة التي تؤدي إلى الالتزام بالإيمان.

﴿وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ الذين يتحركون في الحياة من خلال ذهنية

التمرّد على الله في سلوكهم العملي، الأمر الذي يصل بهم إلى الكفرُ، لأنّ الإيمان يفرض عليهم الالتزام الدقيق بالمضمون الواسع للتوحيد في حركة الواقع فيكفرون هرباً من الالتزام من غير عقدة فكرية تفرض عليهم ذلك، ومن هنا نفهم أن الكفرَ قد يكون نتيجة الفسق كعنصر سلبي من عناصر شخصية الكافرين.

ـ الطبري:

﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾

البقرة: ٨٩

يعني جل ثناؤه بقوله: ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ ﴾ ولما جاء اليهود من بني إسرائيل الذين وصف جل ثناؤه صفتهم ﴿ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ يعني بالكتاب القرآن الذي أنزله الله على محمد (ص) ﴿ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ ﴾ يعني مصدق للذي معهم من الكتب التي أنزلها الله من قبل القرآن كما:

حدّثنا بشر بن معاذ قال حدثنا يزيد قال حدثنا سعيد عن قتادة: ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ ﴾ ، وهو القرآن الذي أنزل على محمد مصدّق لما معهم من التوراة والإنجيل.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ ﴾

يعني بقوله جلّ ثناؤه: ﴿ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ أي: وكان هؤلاء اليهود الذين لما جاءهم كتاب من عند الله مصدّق لما معهم من الكتب التي أنزلها الله قبل الفرقان كفروا به يستفتحون بمحمد (ص) ومعنى الاستفتاح الاستنصار يستنصرون الله به على مُشركي العرب من قبل مبعثه أي من قبل أن يبعث.

﴿ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾

قد دلّلنا فيما مضى على معنى: اللعنة وعلى معنى الكُفر بما فيه الكفاية. فمعنى الآية: فخزي الله وإبعاده على الجاحدين ما قد عرفوا من الحق عليهم لله ولأنبيائه المنكرين لما قد ثبت عندهم صحته من نبوة محمد (ص)، ففي إخبار الله عز وجل عن اليهود بما أخبر الله عنهم بقوله: ﴿ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ البيان الواضح أنهم تعمدوا الكفر بمحمد (ص) بعد قيام الحجة بنبوته عليهم وقطع الله عُذرهم بأنه رسوله إليهم.

﴿ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾

قال أبو جعفر: فمعنى الآية: بئس الشيء باعوا به أنفسهم الكُفر بالذي أنزل الله في كتابه على موسى من نبوة محمد (ص) والأمر بتصديقه واتباعه من أجل أن أنزل الله من فضله وفضله: حكمته واياته ونبوته على من يشاء من عباده يعني به: على محمد (ص) بغياً وحسداً لمحمد (ص) من أجل أنه كان من ولد إسماعيل ولم يكن من بني إسرائيل.

فإن قال قائل: وكيف باعت اليهود أنفسها بالكفر فقيل: ﴿ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾؟ وهل يشترى بالكفر شيء؟

قيل: إن معنى: الشراء والبيع عند العرب هو إزالة مالك مُلكه إلى غيره بعوض يعتاضه منه ثم تستعمل العرب ذلك في كل معتاض من عمله عوضاً شراً أوخيراً فتقول: نعم ما باع به فلان نفسه وبئس ما باع به فلان نفسه، بمعنى: نعم الكسب أكسبها وبئس الكسب أكسبها إذا أورثها بسعيه عليها خيراً أو شراً، فكذلك معنى قوله جلّ ثناؤه: ﴿ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ﴾ لما أوبقوا أنفسهم بكفرهم بمحمد كون فأهلكوها خاطبهم الله والعرب بالذي يعرفونه في كلامهم فقال: ﴿ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ﴾ يعني بذلك: بئس ما أكسبوا أنفسهم بسعيهم وبئس العوض اعتاضوا من كُفرهم بالله في تكذيبهم محمداً إذ كانوا قد رضوا عوضاً

من ثواب الله وما أعدّ لهم لوكانوا آمنوا بالله وما أنزل على أنبيائه بالنار وما أعدّ لهم بكفرهم بذلك.

﴿ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ﴾

يعني بقوله تعالى: ﴿ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ﴾ أي رجعت اليهود من بني إسرائيل بعد الذي كانوا عليه من الاستنصار بمحمد (ص) والاستفتاح به، وبعد الذي كانوا يخبرون به الناس من قبل مبعثه أنه نبي مبعوث مرتدين على أعقابهم حين بعثه الله نبياً مرسلاً فباؤوا بغضب من الله استحقوه منه بكفرهم بمحمد حين بُعث، وجحودهم نبوته وإنكارهم إياه أن يكون هو الذي يجدون صفته في كتابهم، عناداً منهم له وبغياً وحسداً له وللعرب ﴿ عَلَىٰ غَضَبٍ ﴾ سالف كان من الله عليهم قبل ذلك سابق غضبه الثاني لكُفرهم الذي كان قبل عيسى ابن مريم أو لعبادتهم العجل أو لغير ذلك من ذنوب كانت لهم سلفت يستحقون بها الغضب من الله. كما:

حدّثنا ابن حميد قال حدثنا سلمة بن الفضل: قال حدثني ابن إسحق عن محمد بن أبي محمد فيما روي عن سعيد بن جبير أوعكرمة عن ابن عباس: ﴿ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ﴾ فالغضب على الغضب غضبه عليهم فيما كانوا ضيعوا من التوراة وهي معهم وغضب بكُفرهم بهذا النبي الذي أحدث الله إليهم.

﴿ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾

يعني بقوله جل ثناؤه: ﴿ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾: وللجاحدين نبوّة محمد (ص) من الناس كلهم عذاب من الله إما في الآخرة، وإما في الدنيا والآخرة ﴿ مُّهِينٌ ﴾ هو المذلّ صاحبه المخزي المُلبسه هو اناً وذلة.

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوٓاْ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ

بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَهُمۡۗ قُلۡ فَلِمَ تَقۡتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبۡلُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾ البقرة: ٩٠

يعني بقوله جلّ ثناؤه:﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ ﴾ وإذا قيل لليهو د من بني إسرائيل الذين كانوا بين ظهراني مهاجر رسول الله (ص): ﴿ ءَامِنُواْ ﴾ أي صدقوا ﴿ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾ يعني بما أنزل الله من القرآن على محمد ﴿ص﴾ ﴿ قَالُواْ نُؤۡمِنُ ﴾ أي نصدق ﴿ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾ يعني: بالتوراة التي أنزلها الله على موسى.

﴿ وَيَكۡفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ ﴾

يعني جل ثناؤه بقوله:﴿ وَيَكۡفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ ﴾ ويجحدون ﴿ بِمَا وَرَآءَهُۥ ﴾ يعني: بما وراء التوراة.

قال أبو جعفر: وتأويل ﴿ وَرَآءَهُۥ ﴾ في هذا الموضع: سوى كما يقال للرجل المتكلم بالحسن: ما وراء هذا الكلام شيء يراد به: ليس عند المتكلم به شيء سوى ذلك الكلام فكذلك معنى قوله: ﴿ وَيَكۡفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ ﴾ أي بما سوى التوراة وبما بعده من كتب الله التي أنزلها إلى رسله.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَرَاءَهُ وَهُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَهُمۡ ﴾

قال: وذلك خبر من الله أنهم من التكذيب بالتوراة على مثل الذي هم عليه من التكذيب بالإنجيل والفرقان، عناداً لله وخلافاً لأمره وبغياً على رسله (صلوات الله عليهم).

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿ قُلۡ فَلِمَ تَقۡتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبۡلُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾

يعني جلّ ذكره بقوله: ﴿ قُلۡ فَلِمَ تَقۡتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ ﴾ قل يا محمد ليهو د بني إسرائيل الذين إذا قلت لهم: آمنوا بما أنزل الله قالوا: نؤمن بما أنزل علينا: لم تقتلون إن كنتم يا معشر اليهود مؤمنين بما أنزل الله عليكم ﴿ أَنۢبِيَآءَ ﴾ وقد حرم الله في الكتاب الذي أنزل عليكم قتلهم بل أمركم فيه باتباعهم وطاعتهم وتصديقهم؟ وذلك من الله جل ثناؤه تكذيب لهم في قوله: ﴿ نُؤۡمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ﴾ وتعيير لهم.

وأما قوله: ﴿ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ فإنّه يعني: إن كنتم مؤمنين بما نزل الله عليكم كما زعمتم. وإنما عنى بذلك اليهود الذين أدركوا رسول الله (ص) وأسلافهم إن كانوا وكنتم كما تزعمون أيها اليهود مؤمنين وإنّما عيرهم جل ثناؤه بقتل أوائلهم أنبياءه عند قولهم حين قيل لهم: ﴿ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ﴾ لأنهم كانوا لأوائلهم الذين تولوا قتل أنبياء الله مع قيلهم: ﴿ قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ﴾ متولين وبفعلهم راضين فقال لهم: إن كنتم كما تزعمون مؤمنين بما أنزل عليكم فلم تتولون قتلة أنبياء الله؟ أي: ترضون أفعالهم.

﴿ وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾

يعني جل ثناؤه بقوله: ﴿ وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ أي جاءكم بالبينات الدالة على صدقه وصحة نبوّته كالعصا التي تحوّلت ثُعباناً مبيناً، ويده التي أخرجها بيضاء للناظرين، وفلق البحر ومصير أرضه له طريقاً يبساً، والجراد والقفل والضفادع وسائر الآيات التي بينت صدقه وصحة نبوته. وإنما سمّاها الله بينات لتبينها للناظرين إليها أنها معجزة لا يقدر على أن يأتي بها بشر إلا بتسخير الله ذلك له وإنّما هي جمع بينة مثل: طيبة وطيبات.

ومعنى الكلام: ولقد جاءكم يا معشر يهو د بني إسرائيل موسى بالآيات البينات على أمره وصدقه وصحة نبوته. وقوله: ﴿ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾ يقول جل ثناؤه لهم: ثم اتخذتم العجل من بعد موسى إلهاً فالهاء التي في قوله: ﴿ مِنۢ بَعْدِهِۦ ﴾ من ذكر موسى وإنما قال: من بعد موسى، لأنهم اتخذوا العجل من بعد أن فارقهم موسى ماضياً إلى ربه لموعده على ما قد بيّنا فيما مضى من كتابنا، هذا، وقد يجوز أن تكون الهاء التي في (بعده) إلى ذكر المجيء فيكون تأويل الكلام حينئذ: ولقد جاءكم موسى بالبينات ثم اتخذتم العجل من بعد مجيء البينات وأنتم ظالمون كما تقول: جئتني فكرهته يعني: كرِهت مجيئك.

وأمّا قوله: ﴿ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾ فإنه يعني بذلك: أنكم فعلتم ما فعلتم من عبادة العجل وليس ذلك لكم وعبدتم غير الذي كان ينبغي لكم أن تعبدوه، لأن العبادة لا تنبغي لغير الله وهذا توبيخ من الله لليهود وتعيير منه لهم وإخبار منه لهم أنهم إذا كانوا فعلوا ما فعلوا من اتخاذ العجل إلها وهو لا يملك لهم ضراً ولا نفعاً بعد الذي علموا أن ربهم هو الرب الذي يفعل من الأعاجيب وبدائع الأفعال ما أجراه على يدي موسى (ع) من الأمور التي لا يقدر عليها أحد من خلق الله ولم يقدر عليها فرعون وجنده مع بطشه وكثرة أتباعه وقرب عهدهم بما عاينوا من عجائب حكم الله فهم إلى تكذيب محمد (ص) وجحود ما في كتبهم التي زعموا أنهم بها مؤمنون من صفته ونعته مع بعد ما بينهم وبين عهد موسى من المدّة أسرع وإلى التكذيب بما جاءهم به موسى من ذلك أقرب.

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾

يعني بقوله جل ثناؤه: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ ﴾

واذكروا إذ أخذنا عهودكم بأنّ خذوا ما آتيناكم من التوراة التي أنزلتها إليكم أن تعملوا بما فيها من أمري وتنتهوا عما نهيتكم فيها بجد منكم في ذلك ونشاط فأعطيتم على العمل بذلك ميثاقكم إذ رفعنا فوقكم الجبل، وأما قوله: ﴿ وَٱسْمَعُوا۟ ﴾فإن معناه: واسمعوا ما أمرتكم به وتقبلوه بالطاعة كقول الرجل للرجل يأمره بالأمر: سمعت وأطعت يعني بذلك: سمعت قولك وأطعت أمرك.

فمعنى الآية: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ ﴾ أن ﴿ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ ﴾ واعملوا بما سمعتم وأطيعوا الله ﴿ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ ﴾ من أجل ذلك.

وأما قوله: ﴿ قَالُوا۟ سَمِعْنَا ﴾ فإنه خبر من الله عن اليهود الذين أخذ ميثاقهم

أن يعملوا بما في التوراة، وأن يطيعوا الله فيما يسمعون منها أنهم قالوا حين قيل لهم ذلك: سمعنا قولك وعصينا أمرك

﴿وَأُشْرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾

اختلف أهل التأويل في تأويل ذلك فقال بعضهم: وأشربوا في قلوبهم حب العجل.

وقال آخرون: معنى ذلك أنهم سقوا الماء الذي ذرى فيه سحالة العجل.

كما حدّثني موسى بن هارون. قال حدثنا عمرو، قال حدثنا أسباط عن السدي: لما رجع موسى إلى قومه أخذ العجل الذي وجدهم عاكفين عليه فذبحه ثم حرقه بالمبرد ثم ذراه في اليم فلم يبق بحر يومئذ يجري إلاّ وقع فيه شيء منه ثم قال لهم موسى: اشربوا منه فشربوا فمن كان يحبه خرج على شاربه الذهب، فذلك حين يقول الله عز وجل: ﴿وَأُشْرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾.

وأولى التأويلين اللذين ذكرت بقول الله جل ثناؤه: ﴿وَأُشْرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾ تأويل من قال: وأشربوا في قلوبهم حب العجل لأن الماء لا يقال منه: أشرب فلان في قلبه وإنما يقال ذلك في حب الشيء فيقال منه: أشرب قلب فلان حب كذا بمعنى: سقي ذلك حتى غلب عليه وخالطه.

﴿قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾

يعني بذلك جلّ ثناؤه: ﴿قُلْ﴾ يا محمد ليهود بني إسرائيل: بئس الشيء يأمركم به إيمانكم إن كان يأمركم بقتل أنبياء الله ورُسله والتكذيب بكتبه، وجحود ما جاء من عنده ومعنى إيمانهم: تصديقهم الذي زعموا أنهم به مصدقون من كتاب الله إذ قيل لهم: آمنوا بما أنزل الله فقالوا : نؤمن بما أنزل علينا.

وقوله: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي إن كنتم مصدّقين كما زعمتم بما أنزل الله عليكم وإنما كذبهم الله بذلك، لأن التوراة تنهى عن ذلك كلّه وتأمر بخلافه فأخبرهم أن تصديقهم بالتوراة إن كان يأمرهم بذلك فبئس الأمر تأمر به، وإنما ذلك نفي من الله تعالى ذكره عن التوراة أن تكون تأمر بشيء مما يكرهه الله من أفعالهم وأن

يكون التصديق بها يدلّ على شيء من مخالفة أمر الله وإعلام منه جل ثناؤه أن الذي يأمرهم بذلك هو أهواؤهم والذي يحملهم عليه البغي والعدوان.

﴿ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾.

وهذه الآية ممّا احتج الله بها لنبيه محمد (ص) على اليهود الذين كانوا بين ظهراني مهاجره وفضح بها أحبارهم وعلماءهم وذلك أن الله جل ثناؤه أمر نبيه (ص) أن يدعوهم إلى قضية عادلة بينه وبينهم فيما كان بينه وبينهم من الخلاف، كما أمره الله أن يدعو الفريق الآخر من النصارى إذ خالفوه في عيسى (ع) وجادلوا فيه إلى فاصلة بينه وبينهم من المباهلة، وقال لفريق اليهود: إن كنتم محقين فتمنوا الموت، فإن ذلك غير ضاركم إن كنتم مُحقّين فيما تدعون من الإيمان وقُرب المنزلة من الله بل إن أعطيتم أمنيتكم من الموت إذا تمنيتم فإنّما تصيرون إلى الراحة من تعب الدنيا ونصبها وكُدر عيشها والفوز بجوار الله في جنانه إن كان الأمر كما تزعمون: من أن الدار الآخرة لكم خالصة دوننا وإن لم تعطوها علم الناس أنكم المبطلون، ونحن المحقون في دعوانا وانكشف أمرنا وأمركم لهم فامتنعت اليهود من إجابة النبي (ص) إلى ذلك لعلمها أنها إن تمنّت الموت هلكت فذهبت دنياها وصارت إلى خزي الأبد في آخرتها كما امتنع فريق النصارى الذين جادلوا النبي (ص) في عيسى إذ دعوا إلى المباهلة فبلغنا أن رسول الله (ص) قال: «لو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا ولرأوا مقاعدهم من النار، ولو خرج الذين يباهلون رسول الله (ص) لرجعوا لا يجدون أهلاً ولا مالاً».

فانكشف لمن كان مشكلاً عليه أمر اليهود يومئذ كذبهم وبهتهم وبغيهم على رسول الله (ص) وظهرت حجّة رسول الله وحجّة أصحابه عليهم ولم تزل والحمدلله ظاهرة عليهم وعلى غيرهم من سائر أهل الملل. وإنما أمر رسول الله (ص) أن يقول لهم: ﴿ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ لأنّهم فيما ذكر لنا قالوا: ﴿ نَحْنُ

أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ﴾المائدة: ١٨ وقالوا: ﴿ وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ﴾البقرة: ١١١ فقال الله لنبيه محمد (ص): قل لهم: إن كنتم صادقين فيما تزعمون فتمنوا الموت فأبان الله كذبهم بامتناعهم من تمني ذلك وأفلج حجة رسول الله (ص).

وقد اختلف أهل التأويل في السبب الذي من أجله أمر الله نبيه (ص) أن يدعو اليهود أن يتمنوا الموت، وعلى أي وجه أمروا أن يتمنوه.

فقال بعضهم: أمروا أن يتمنوه على وجه الدعاء على الفريق الكاذب منهما.

﴿ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

وهذا خبر من الله جل ثناؤه عن اليهود وكراهتهم الموت وامتناعهم عن الإجابة إلى ما دعوا إليه من تمني الموت لعلمهم بأنهم إن فعلوا ذلك فالوعيد بهم نازل والموت بهم حال ولمعرفتهم بمحمد (ص) أنه رسول من الله إليهم مُرسل وهم به مكذّبون وأنه لم يخبرهم خبرا إلاّ كان حقاً كما أخبر فهم يحذرون أن يتمنوا الموت خوفا أن يحلّ بهم عقاب الله بما كسبت أيديهم من الذنوب كالذي: حدّثني محمد بن حميد قال حدثنا سلمة قال حدثني محمد بن إسحق قال حدثني محمد بن أبي محمد فيما يروي أبوجعفر عن سعيد بن جبير أو عكرمة عن ابن عباس: ﴿ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ﴾ الآية أي: ادعوا بالموت على أي الفريقين أكذب فأبوا ذلك على رسول الله (ص) يقول الله لنبيه محمد (ص): ﴿ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ أي: بعلمهم بما عندهم من العلم بك والكفر بذلك.

قال: وإنّما قيل ذلك بإضافته إلى اليد لأن عظم جنايات الناس بأيديهم فجرى الكلام باستعمال إضافة الجنايات التي يجنيها الناس إلى أيديهم حتى أضيف كل ما عوقب عليه الإنسان مما جناه بسائر أعضاء جسده إلى أنها عقوبة على ما جنته يده فلذلك قال جل ثناؤه للعرب: ﴿ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾يعني به: ولن يتمنى اليهود الموت بما قدموا أمامهم في حياتهم من كفرهم بالله في مخالفتهم أمره وطاعته في اتباع محمد (ص) وما جاء به من عند الله وهم يجدونه مكتوباً

عندهم في التوراة ويعلمون أنه نبي مبعوث فأضاف جل ثناؤه ما انطوت عليه قلوبهم وأضمرته أنفسهم ونطقت به ألسنتهم من حسد محمد (ص) والبغي عليه وتكذيبه وجحود رسالته إلى أيديهم، وأنه ممّا قدّمته أيديهم لعلم العرب معنى ذلك في منطقها وكلامها إذ كان جل ثناؤه إنما أنزل القرآن بلسانها وبلغتها.

وأما قوله: ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ فإنه يعني جل ثناؤه: والله ذو علم بظلمة بني آدم يهودها ونصاراها وسائر أهل المُلل غيرها وما يعملون. وظلم اليهود: كُفرهم بالله في خلافهم أمره وطاعته في اتباع محمد (ص) بعد أن كانوا يستفتحون به وبمبعثه وجحودهم نبوّته وهم عالمون أنه نبي الله ورسوله إليهم. وقد دلّلنا على معنى الظلم فيما مضى بما أغنى عن إعادته.

﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾

يعني بقوله جل ثناؤه: ﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ ﴾

اليهود يقول: يا محمد لتجدنّ أشدّ الناس حرصاً على الحياة في الدنيا وأشدّهم كراهة للموت اليهود.

وإنما كراهتهم الموت لعلمهم بما لهم في الآخرة من الخزيُ والهوان الطويل.

﴿ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۚ ﴾

يعني جل ثناؤه بقوله: ﴿ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۚ ﴾ وأحرص من الذين أشركوا على الحياة كما يقال: هو أشجع الناس ومن عنترة بمعنى: هو أشجع من الناس ومن عنترة فكذلك قوله: ﴿ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ﴾ لأن معنى الكلام: ولتجدنّ يا محمد اليهود من بني إسرائيل أحرص الناس على حياة ومن الذين أشركوا فلما أضيف ﴿ أَحْرَصَ ﴾ إلى ﴿ ٱلنَّاسِ ﴾ وفيه تأويل من أظهرت بعد حرف العطف رداً على التأويل الذي ذكرناه.

وإنما وصف الله جل ثناؤه اليهود بأنهم أحرص الناس على الحياة لعلمهم بما قد

أعدّ لهم في الآخرة على كُفرهم بما لا يقرّ به أهل الشّرك فهم للموت أكره من أهل الشرك الذين لا يؤمنون بالبعث لأنهم يؤمنون بالبعث ويعلمون ما لهم هنالك من العذاب والمشركون لا يصدقون بالبعث ولا العقاب فاليهود أحرص منهم على الحياة وأكره للموت.

وقيل: إن الذين أشركوا الذين أخبر الله تعالى ذكره أن اليهود أحرص منهم في هذه الآية على الحياة هم المجوس الذين لا يصدقون بالبعث. ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾.

هذا خبر من الله جلّ ثناؤه عن الذين أشركوا الذين أخبر أن اليهود أحرص منهم على الحياة يقول جل ثناؤه: يود أحد هؤلاء الذين أشركوا الآيس بفناء دنياه وانقضاء أيام حياته أن يكون له بعد ذلك نشوراً أو محياً أو فرحاً أو سروراً ﴿لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ حتى جعل بعضهم تحية بعض: عشرة آلاف عام حرصاً منهم على الحياة.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ﴾ يعني جل ثناؤه بقوله: ﴿وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ﴾ وما التعمير وهو طول البقاء بمزحزحه من عذاب الله.

﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾

يعني جل ثناؤه بقوله: ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ والله ذو إبصار بما يعملون لا يخفى عليه شيء من أعمالهم، بل هو بجميعها محيط ولها حافظ ذاكر حتى يذيقهم بها العقاب جزاءها. وأصل ﴿بَصِيرٌ﴾ مُبصر من قول القائل : أبصرت فأنا مبصر ولكن صرف إلى فعيل كما صرف مسمع إلى سميع و عذاب مُؤلم إلى أليم ومُبدع السموات إلى بديع وما أشبه ذلك.

﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾

أجمع أهل العلم بالتأويل جميعاً على أن هذه الآية نزلت جواباً لليهود من بني إسرائيل إذ زعموا أن جبريل عدواً لهم وأن ميكائيل ولي لهم ثم اختلفوا في السبب الذي من أجله قالوا ذلك فقال بعضهم: إنّما كان سبب قيلهم ذلك من أجل مناظرة جرت بينهم وبين رسول الله (ص) في أمر نبوته.

وقد حدّثنا أبو كريب؛ قال حدثنا يونس بن بكير عن عبد الحميد بن بهرام عن شهر بن حوشب عن ابن عباس أنه قال: حضرت عصابة من اليهود رسول الله (ص) فقالوا: يا أبا القاسم حدثنا عن خلال نسألك عنهن لا يعلمهن إلاّ نبي فقال رسول الله (ص): سلوا عما شئتم ولكن اجعلوا لي ذمة الله وما أخذ يعقوب على بنيه لئن أنا حدثتكم شيئا فعرفتموه لتتابعني على الإسلام فقالوا: ذلك لك فقال رسول الله (ص): «سلوني عما شئتم فقالوا: أخبرنا عن أربع خلال نسألك عنهن: أخبرنا أي الطعام حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة ؟ وأخبرنا كيف ماء المرأة وماء الرجل؟ وكيف يكون الذكر منه والأنثى؟ وأخبرنا بهذا النبي الأمي في النوم ومن وليه من الملائكة؟ فقال رسول الله (ص): عليكم عهد الله لئن أنا أنبأتكم لتتابعني فأعطوه ما شاء من عهد وميثاق فقال: نشدتكم بالذي أنزل التوراة على موسى هل تعلمون أن اسرائيل مرض مرضاً شديداً فطال سقمه منه فنذر نذراً لئن عافاه الله من سقمه ليحرمنّ أحب الطعام والشراب إليه، وكان أحب الطعام إليه لحم الإبل، وأحب الشراب إليه ألبانها. فقالوا: اللهم نعم فقال رسول الله (ص): أشهد الله عليكم وأنشدكم بالله الذي لا إله إلاّ هو الذي أنزل التوراة على موسى هل تعلمون أنّ ماء الرجل أبيض غليظ وأن ماء المرأة أصفر رقيق فأيهما علا كان له الولد والشبه بإذن الله فإذا علا ماء الرجل ماء المرأة كان الولد ذكرا بإذن الله وإذا علا ماء المرأة ماء الرجل كان الولد أنثى بإذن الله. قالوا: اللهم نعم قال: اللّهم أشهد قال: وأنشدكم بالذي أنزل التوراة على موسى هل تعلمون أن هذا النبي الأمي تنام عيناه ولا ينام قلبه؟ قالوا: اللهم نعم قال: اللهم اشهد قالوا: أنت الآن تحدثنا من وليك من الملائكة فعندها نتابعك أو نفارقك قال: فإن وليي جبريل ولم يبعث الله نبيا قط إلا وهو وليه

قالوا: فعندها نفارقك لو كان وليك سواه من الملائكة تابعناك وصدقناك قال: فما يمنعكم أن تصدقوه؟ قالوا: إنه عدونا فأنزل الله عز وجل: ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ إلى قوله ﴿ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ فعندها باؤوا بغضب على غضب.

وأما تأويل الآية أعني قوله: ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ فهو: أن الله يقول لنبيه: قل يا محمد لمعاشر اليهود من بني إسرائيل الذين زعموا أن جبريل لهم عدو من أجل أنه صاحب سطوات وعذاب وعقوبات لا صاحب وحي وتنزيل ورحمة، فأبوا اتّباعك وجحدوا نبوّتك وأنكروا ما جئتهم به من آياتي وبيّنات حكمي من أجل أن جبريل وليك وصاحب وحيي إليك وزعموا أنه عدو لهم: من يكن من الناس لجبريل عدواً ومنكراً أن يكون صاحب وحي الله إلى أنبيائه وصاحب رحمته فإني له ولي وخليل ومقرّ بأنه صاحب وحي إلى أنبيائه ورسله وأنه هو الذي ينزل وحي الله على قلبي من عند ربي بإذن ربي له بذلك يربطُ به على قلبي ويشدّ فؤادي.

﴿ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾

فمعنى الكلام : فإن جبريل نزّل القران على قلبك يا محمد مصدّقاً لما بين يدي القرآن، يعني بذلك: مصدقاً لما سلف من كُتب الله أمامه ونزلت على رسله الذين كانوا قبل محمد (ص) وتصديقه إياها موافقة معانيه معانيها في الأمر باتباع محمد (ص) وما جاء به من عند الله وهي تصدّقه كما: حدثنا أبو كريب قال حدثنا عثمان بن سعيد قال حدثنا بشر بن عمارة عن أبي روق عن الضحاك عن ابن عباس: ﴿ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ يقول لما قبله من الكتب التي أنزلها الله والآيات والرسل الذين بعثهم الله بالآيات نحو موسى ونوح وهود وشعيب وصالح وأشباههم من الرُسل (ع).

﴿ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾

يعني بقوله جلّ ثناؤه: ﴿ وَهُدًى ﴾ ودليل وبرهان وإنما سماه الله جل ثناؤه

«هدى» لاهتداء المؤمن به واهتداؤه به إتخاذه إياه هادياً يتبعه وقائداً ينقاد لأمره ونهيه وحلاله وحرامه والهادي من كل شيء: ما تقدم أمامه ومن ذلك قيل لأوائل الخيل: هواديها وهو ما تقدم أمامها وكذلك قيل للعنق: الهادي لتقدمها أمام سائر الجسد.

وأمّا البُشرى فإنها البشارة أخبر الله عباده المؤمنين جل ثناؤه أن القرآن لهم بشرى منه لأنه أعلمهم بما أعد لهم من الكرامة عنده في جناته وما هم إليه صائرون في معادهم من ثوابه وذلك هو البشرى التي بشر الله بها المؤمنين في كتابه، لأنّ البشارة في كلام العرب هي: إعلام الرجل بما لم يكن به عالماً ممّا يسرّه من الخبر قبل أن يسمعه من غيره أو يعلمه من قبل غيره.

﴿ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴾

وهذا خبر من الله جل ثناؤه ﴿ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ ﴾، من عاداه، وعادى جميع ملائكته ورُسله، وإعلام منه أن من عادى جبريل فقد عاداه وعادى ميكائيل، وعادى جميع ملائكته ورسله. لأن الذين سماهم الله في هذه الآية هم أولياء الله وأهل طاعته، ومن عادى لله ولياً فقد عادى الله وبارزه بالمحاربة، ومن عادى الله فقد عادى جميع أهل طاعته وولايته. لأن العدو لله عدو لأوليائه، والعدو لأولياء الله عدو له. فكذلك قال لليهود الذين قالوا: إن جبريل عدونا من الملائكة، وميكائيل ولينا منهم: ﴿ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴾، من أجل أن عدو جبريل عدو كل ولي لله. فأخبرهم جل ثناؤه أن من كان عدواً لجبريل، فهو لكل من ذكره من ملائكته ورسله وميكال عدو، وكذلك عدو بعض رُسل الله، عدو لله ولكل ولي.

﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾

يعني جل ثناؤه بقوله: ﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ ﴾، أي أنزلنا إليك

يا محمد علامات واضحات دالات على نبوتك: وتلك الآيات هي ما حواه كتاب الله الذي أنزله إلى محمد (ص) من خفايا علوم اليهود ومكنون سرائر أخبارهم وأخبار أوائلهم من بني إسرائيل، والنبأ عما تضّنته كتبهم التي لم يكن يعلمها إلاّ أحبارهم وعلماؤهم. وما حرّفه أوائلهم وأواخرهم وبدّلوه، من أحكامهم التي كانت في التوراة. فأطلعها الله في كتابه الذي أنزله على نبيه محمد (ص). فكان، في ذلك من أمره، الآيات البيّنات لمن أنصف نفسه، ولم يدعه إلى إهلاكها الحسد والبغي. إذ كان في فطرة كل ذي فطرة صحيحة، تصديق من أتى بمثل الذي أتى به محمد (ص) من الآيات البيّنات التي وصفت من غير تعلم تعلمه من بشر، ولا أخذ شيء منه عن آدمي. وبنحو الذي قلنا في ذلك روي الخبر عن ابن عباس.

﴿ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾

﴿ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ وما يجحد بها. وقد دلّلنا فيما مضى من كتابنا هذا على أن معنى «الكفر» الجحود، بما أغنى عن إعادته هنا. وكذلك بينا معنى «الفسق»، وأنه الخروج عن الشيء إلى غيره.

ـ الطبرسي:

﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾

البقرة: ٨٩

المعنى: ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ ﴾ أي: جاء اليهود من بني إسرائيل الذين وصفهم الله. ﴿كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ يعني به القرآن الذي أنزله على نبيه محمد (ص) ﴿ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ ﴾ أي: للذي معهم الكتب التي أنزلها الله تعالى قبل القرآن نص التوراة والإنجيل وغيرهما وفيه وجهان أحدهما: إن معناه أنه مصدق لما تقدم به الإخبار في التوراة والإنجيل، فهو مصدق لذلك من حيث كان مخبره على ما تقدم الخبر به.

والآخر: إنه مصدق لهما أي: بأنهما من عند الله تعالى، وأنهما حتى ﴿وَكَانُواْ﴾ يعني اليهود ﴿مِن قَبْلُ﴾ أي: من قبل مبعث النبي (ص)، ونزول القرآن ﴿يَسْتَفْتِحُونَ﴾ فيه وجوه أحدها: إنْ معناه يستنصرون أي: يقولون في الحروب اللهم افتح علينا، وانصرنا بحق النبي الأمي. اللهم انصرنا بحق النبي المبعوث إلينا. فهم يسألون عن الفتح الذي هو النصر وثانيها: إنهم كانوا يقولون لمن ينابذهم: هذا نبي قد أطلّ زمانه ينصرنا عليكم. وثالثها: إن معنا يستفتحون يستعملون من علمائهم صفة نبي يبعث من العرب. فكانوا يصفونه لهم فلما بعث أنكروه. ورابعها: إنّ معنى يستفتحون يستحكمون ربهم على كفار العرب، كما قال:

ألاَ أَبْلغْ بنِي عُصْم رسُولاً: فإنِّي عن فُتاحتِكُمْ غَيي

أي: عن محاكمتكم به. وقوله: ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي: مشركي العرب ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ﴾ يعني محمداً (ص)، أي: عرفوا صفته ومبعثه ﴿كَفَرُواْ بِهِۦ﴾ حسداً وبغياً، وطلباً للرئاسة ﴿فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ﴾ أي: غضبه وعقابه ﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾. وقد فسّرنا معنى اللعنة والكفر فيما مضى.

﴿بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾

المعنى: ثم ذمّ الله سبحانه اليهود بإيثارهم الدنيا على الدين، فقال: ﴿بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ﴾ أي: بئس شيئاً باعوا به أنفسهم، أو بئس الشيء باعوا به أنفسهم ﴿أَن يَكْفُرُواْ﴾ أي: كفرهم ﴿بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ يعني القرآن، ودين الإسلام المنزل على محمد (ص).

فإذا سئل: كيف باعت اليهود أنفسها بالكفر؟ فالجواب: إنَّ البيع والشراء إزالة ملك المالك إلى غيره بعوض يعتاضه منه، ثم يستعمل ذلك في كل معتاض من عمله عوضاً، خيراً كان أو شراً. فاليهود لما أوبقوا أنفسهم بكفرهم بمحمد (ص) وأُهلكوا،

خاطبهم الله بما كانوا يعرفونه، فقال: بئس الشيء رضوا به عوضاً من ثواب الله، وما أعدّه لهم لو كانوا آمنوا بالله، وما أنزل الله على نبيه النار وما أعدّ لهم بكفرهم. ونظير ذلك الآيات في سورة النساء من قوله: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ ﴾ ـ إلى قوله ـ ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴾ النساء: ٥١ - ٥٤ .

وقوله: ﴿ بَغْيًا ﴾ أي: حسداً لمحمد (ص) إذ كان من ولد إسماعيل، وكانت الرُسل قبل من بني إسرائيل. وقيل: طلباً لشيء ليس لهم. ثم فسر ذلك بقوله: ﴿ أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ﴾ وهو الوحي والنبوة. وقوله: ﴿ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ﴾ معناه: رحبت اليهود من بني إسرائيل بعد ما كانوا عليه من الانتصار بمحمد، والاستفتاح به، والإخبار بأنه نبي مبعوث، مرتدين ناكصين على أعقابهم حين بعثه الله نبياً، بغضب من الله استحقوه منه بكفرهم.

وقال مؤرج: معنى باءوا بغضب: استوجبوا اللعنة بلغة جُرْهم. ولا يقال باء مفردة حتى يقال إمّا بخير وإمّا بشر. وقال أبو عبيدة: فباؤوا بغض احتملوه، وأقرّوا به. وأصل البوء: التقرير والاستقرار. وقوله: ﴿ عَلَىٰ غَضَبٍ ﴾ فيه أقوال أحدها: إن الغضب الأول: حين غيّروا التوراة قبل مبعث النبي، والغضب الثاني: حين كفروا بمحمد (ص)، عن عطاء، وغيره. وثانيها: إنّ الغضب الأول: حين عبدوا العجل، والثاني: حين كفروا بمحمد، عن السدي. وثالثها: إنَّ الأول: حين كفروا بعيسى (ع)، والثاني: حين كفروا بمحمد (ص)، عن الحسن، وعكرمة، وقتادة. ورابعها: إنَّ ذلك على التوكيد والمبالغة إذ كان الغضب لازماً لهم، فيتكرر عليهم، عن أبي مسلم، والأصم.

﴿ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ معناه: للجاحدين بنبوة محمد عذاب مهين من الله إما في الدنيا، وإما في الآخرة. والمهين: هون الذي يذل صاحبه ويخزيه ويلبسه الهوان. وقيل: المهين الذي لا ينتقل منه إلى إعزاز وإكرام. وقد يكون غير مهين إذا كان تمحيصاً وتكفيراً ينتقل بعده إلى إعزاز وتعظيم. فعلى هذا من ينتقل من عذاب النار إلى الجنة لا يكون عذابه مهيناً.

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوٓاْ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ البقرة: ٩١

المعنى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ﴾ يعني اليهود الذين تقدم ذكرهم ﴿ ءَامِنُواْ ﴾ أي: صدقوا ﴿ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾ من القرآن على محمد (ص)، والشرائع التي جاء بها. ﴿ قَالُوٓاْ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ﴾ يعنون التوراة ﴿ وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ ﴾ أي: يجحدون بما بعده يريد الإنجيل والقرآن، أو بما سوى التوراة من الكتب المنزلة، كقوله سبحانه: ﴿ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ ﴾ النساء: ٢٤. وقال ابن الأنباري: تم الكلام عند قوله: ﴿ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ﴾ ثم ابتدأ الله بالإخبار عنهم فقال ﴿ وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ ﴾ أي: بما سواه. ﴿ وَهُوَ ٱلْحَقُّ ﴾ يعني القرآن ﴿ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ﴾ يعني التوراة لأن تصديق محمد (ص)، وما أُنزل معه من القرآن، مكتوب عندهم في التوراة.

وقال الزجاج: وفي هذا دلالة على أنهم قد كفروا بما معهم، إذ كفروا بما يصدّق ما معهم. ثم رد الله تعالى عليهم قولهم ﴿ قَالُوٓاْ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ﴾ فقال: ﴿ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ ﴾ أي: قل يا محمد لهم فلم قتلتم أنبياء الله، وقد حرم الله في الكتاب الذي أُنزل عليكم قتلهم، وأمركم فيه باتباعهم، وفرض عليكم طاعتهم وتصديقهم ﴿ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ بما أنزل عليكم.

وقال الزجاج: إنَّ بمعنى ما ههنا، كأنه قال: ما كنتم مؤمنين. وهذا وجه بعيد، وإنما قال: ﴿ تَقْتُلُونَ ﴾ بمعنى قتلتم، لأن لفظ المستقبل يطلق على الماضي، إذا كان ذلك من الصفات اللازمة، كما يقال: أنت تسرق وتقتل، إذا صار ذلك عادة له، ولا يراد بذلك ذمّه ولا توبيخه على ذلك الفعل في المستقبل. وإنما يراد به توبيخه على ما مضى، وإنما أضاف إليهم فعل آبائهم وأسلافهم لأحد أمرين:

أحدهما: إنّ الخطاب لمن شهد من أهل ملة واحدة ومن غاب منهم واحد. فإذا قتل أسلافهم الأنبياء، وهم مقيمون على مذهبهم وطريقتهم، فقد شركوهم في ذلك.

والآخر: إنهم رضوا بأفعالهم، والراضي بفعل قوم كالداخل فيه معهم، وهذا المعنى قريب من الأول. وفي هذه الآية دلالة على أن الإيمان بكتاب من كتب الله لا يصح إذا لم يحصل الإيمان بما سواه من كتب الله المنزلة التي هي مثله في اقتران المعجزة به.

﴿ وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾

المعنى: ثم حكى سبحانه عنهم ما يدلّ على قلة بصيرتهم في الدين، ضعفهم في اليقين، فقال: ﴿ وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾ الدالة على الصدقة، والمعجزات المؤيدة لنبوته، كاليد البيضاء وانبجاس الماء من الحجر فلق البحر وقلب العصا حية والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم، سمّاها بينات لظهورها، وتبينها للناظرين إليها أنها معجزة يتعذر الإتيان بها على كل بشر. وقوله: ﴿ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ ﴾ يعني اتخذتم العجل إلهاً، وعبدتموه ﴿ مِنۢ بَعْدِهِۦ ﴾ أي من بعد موسى لمّا فارقكم، ومضى إلى ميقات ربه. ويجوز أنْ كون الهاء كناية عن المجيء، فيكون التقدير: ثم اتخذتم العجل من بعد مجيء البينات. ﴿ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾ لأنفسكم بكفركم وعبادتكم العجل، لأن عبادة لا تكون لغير الله.

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾

المعنى: قوله: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ ﴾قد فسرناه فيما مضى، والفائدة في تكرير هذا وأمثاله التأكيد، وإيجاب الحجة عليهم على عادة العرب في مخاطباتها. وقيل: إنه سبحانه لما عدّ

فضائح اليهود، أعاد ذكر رفع الجبل. وقيل: إنه تعالى إنما ذكر الأول للاعتبار بأخبار من مضى، والثاني للاحتجاج عليهم. وقوله: ﴿وَٱسْمَعُوا۟﴾ أي: أقلبوا ما سمعتم، واعملوا به، وأطيعوا الله. وقيل: معناه اسمعوا ما يتلى عليكم أي: استمعوا لتسمعوا. وهذا اللفظ يحتمل الاستماع والقبول، ولا تنافي بينهما فيحتمل عليهما، فكأنه قيل: استمعوا لتسمعوا، ثم اقبلوا وأطيعوا.

ويدل عليه أنه قال في الجواب عنهم: ﴿قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ وفيه قولان أحدهما: إنهم قالوا هذا القول في الحقيقة استهزاء ومعناه: سمعنا قولك وعصينا أمرك. والثاني: إن حالهم كحال من قال ذلك إذ فعلوا ما دل عليه كما قال الشاعر: قالت جَناحَاهُ لِرِجْلَيْهِ الحقي، وإنْ كان الجناح لا يقول ذلك، وإنما رجع سبحانه عن لفظ الخطاب إلى الخبر عن الغائب، على عادة العرب المألوفة.

واختلف في هذا الضمير إلى من يعود، فقيل: إلى اليهود الذين كانوا في عصر النبي (ص)، فإنهم قالوا ذلك ثم رجع إلى حديث أوائلهم فقال: ﴿وَأُشْرِبُوا۟﴾ وقيل: إلى اليهود الذين كانوا في عصر موسى (ع)، إذ ردّوا عليه قوله وقابلوه بالعصيان. وقوله: ﴿وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ﴾ فمعناه: دخل قلوبهم حب العجل.

﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾

المعنى: ثم عاد سبحانه إلى الاحتجاج على اليهود بما فضح به أخبارهم وعلماءهم، ودعاهم إلى قضية عادلة بينه وبينهم، فقال: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهم ﴿إِن كَانَتْ﴾ الجنة ﴿خَالِصَةً﴾ لكم ﴿مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ﴾ كلهم، أو دون محمد واصحابه، كما ادعيتم بقولكم: ﴿لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾ البقرة: ١١١، وكنتم صادقين في قولكم ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ المائدة: ١٨، وأن الله لا يعذبنا ﴿فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ﴾ الجمعة/٦ ، لأن من اعتقد أنه من أهل الجنة قطعاً، كان الموت أحب إليه من حياة الدنيا التي فيها أنواع المشاق والهموم، والآلام والغموم.

ومن كان على يقين أنه إذا مات تخلص منها، وفاز بالنعيم المقيم، فإنه يؤثر الموت على الحياة. ألا ترى إلى قول أمير المؤمنين (ع)، وهو يطوف بين الصَفين بِصِفين في غلالة، لما قال له الحسن ابنه ما هذا زيّ الحرب: ((يا بني! إنّ أباك لا يبالي وقع على الموت، أو وقع الموت عليه)). وقول عمار بن ياسر بصفين أيضاً: الآن أُلاقي الأحبة محمداً وحزبه. وأما ما روي عن النبي (ص)، أنه قال: ((لا يتمنينّ أحدكم الموت لضرّ نزل به، ولكن ليقل: اللهم أحيني ما دامت الحياة خيراً لي، وتوفني ما كانت الوفاة خيراً لي)) فإنما نهى عن تمني الموت، لأنه يدل على الجزع والمأمور به الصبر، وتفويض الأمور إليه تعالى، ولأنا لا نأمن وقوع التقصير فيما أُمرنا به، ونرجو في البقاء التلافي.

﴿ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾

المعنى: أخبر الله سبحانه عن هؤلاء الذي قيل لهم: ﴿ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ الجمعة/٦ بأنهم لا يتمنون ذلك أبداً بما قدموه من المعاصي والقبائح، وتكذيب الكتاب والرسول، عن الحسن، وأبي مسلم. وقيل: بما كتموا من صفة النبي (ص)، عن ابن جريج. وأضاف ذلك إلى اليد، وإِنْ كانوا إنما فعلوا ذلك باللسان، لأن العرب تقول: هذا ما كسبت يداك، وإِنْ كان ذلك حصل باللسان. والوجه فيه أنَّ الغالب أنْ تحصل الجناية باليد، فيضاف بذلك إليها ما يحصل بغيرها.

وقوله: ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ خصص الظالمين بذلك، وإِنْ كان عليماً بهم وبغيرهم، بأن الغرض بذلك الزجر والتهديد، كما يقول الإِنسان لغيره: إني عارف بصير بعملك. وقيل: معناه إن الله عليم بالأسباب التي منعتهم عن تمني الموت، وبما أضمروه وأسروه من كتمان الحق عناداً، مع علم كثير منهم أنهم مبطلون. وروي عن النبي (ص)، أنه قال: ((لو أنْ اليهود تمنوا الموت لماتوا، ولرأوا مقاعدهم من النار، فقال الله سبحانه إنهم لن يتمنوه أبداً تحقيقاً لكذبهم)). وفي ذلك أعظم دلالة على صدق نبينا وصحة نبوته، لأنه أخبر بالشيء قبل كونه، فكان كما أخبر.

وأيضاً فإنهم كفوا عن التمني للموت، لعلمهم بأنه حق، وأنهم لو تمنوا الموت لماتوا. وروى الكلبي عن ابن عباس أنه قال: كان رسول الله (ص) يقول لهم: ((إنْ كنتم صادقين في مقالتكم، فقولوا اللهم امتنا، فوالذي نفسي بيده، لا يقولها رجل إلاَّ غصّ بريقه فمات مكانه)) . وهذه القصة شبيهة بقصة المباهلة، وأنّ النبي (ص) لما دعا النصارى إلى المباهلة، امتنعوا لقلة ثقتهم بما هم عليه، وخوفهم من صدق النبي (ص) في قوله: ((لو باهلوني لرجعوا لا يجدون أهلاً ولا مالاً)) فلما لم يتمنّ اليهود الموت افتضحوا، كما أن النصارى لما أحجموا عن المباهلة افتضحوا، وظهر الحق.

فإن قيل: من أين علمتم أنهم لم يتمنوا الموت بقلوبهم؟ فالجواب: إنَّ من قال التمني هو القول، فالسؤال ساقط عنه. ومن قال هو معنى في القلب، قال: لو تمنوه بقلوبهم لأظهروه بألسنتهم، حرصاً منهم على تكذيبه في إخباره، ولأن تحديهم بتمني الموت إنما وقع بما يظهر على اللسان، وكان يسهل عليهم أنْ يقولوا ليت الموت نزل بنا. فلما عدلوا عن ذلك، ظهر صدقه (ص) ووضحت حجته.

﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾

المعنى: ثم أخبر سبحانه عن أحوال اليهود، فقال: ﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ ﴾

أي: ويتعلمن يا محمد هؤلاء اليهود. وقيل: يعني به علماء اليهود ﴿ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ ﴾ أي: أحرصهم على البقاء في الدنيا، أشد من حرص سائر الناس. ﴿ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ﴾ أي: ولتجدنهم أحرص من الذين أشركوا، وهم المجوس، ومن لا يؤمن بالبعث. وقال أبو علي الجبائي: إن الكلام ثم عند قوله﴿ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ ﴾. وقوله: ﴿ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ﴾ تقديره ومن اليهود الذين أشركوا من يود أحدهم لو يعمر ألف سنة، فحذف مَن. وقال علي بن عيسى: هذا غير صحيح، لأن حذف من لا يجوز في مثل هذا الموضع. وقال أبو مسلم الإصفهاني: إن في هذا الكلام تقديماً وتأخيراً، وتقديره ولتجدنهم طائفة من الذين أشركوا، أحرص الناس على حياة

وأقول: إذا جاز ههنا أن يحذف الموصوف الذي هو طائفة أمامه، وهو قوله ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ﴾ فليجز على ما ذهب إليه الجبائي، أن يكون تقديره: ومن الذين أشركوا طائفة يود أحدهم، فيحذف الموصوف، ويقام صفة الذي هو ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمۡ لَوۡ يُعَمَّرُ أَلۡفَ سَنَةٖ﴾ ذكر الألف لأنها نهاية ما كانت المجوس يدعو به بعضهم لبعض، وتُحيّى به الملوك، يقولون: عش ألف نوروز وألف مهرجان. قال ابن عباس: هو قول أحدهم لمن عطس: ((هزار سال بزي)) يقال: فهؤلاء الذين يزعمون أن لهم الجنة لا يتمنون الموت، وهم أحرض ممن يؤمن بالبعث. وكذلك يجب أن يكون هؤلاء، لعلمهم بما أعدّ الله لهم في الآخرة من الجحيم. والعذاب الأليم، على كفرهم وعنادهم، مما لا يقرّ به أهل الشرك. فهم للموت أكره من أهل الشرك الذين لا يؤمنون بالبعث، وعلى الحياة أحرص لها من العلة.

وقوله: ﴿وَمَا هُوَ بِمُزَحۡزِحِهِۦ مِنَ ٱلۡعَذَابِ أَن يُعَمَّرۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ﴾ أي: وما أحدهم بمنجيه من عذاب الله، ولا بمبعده منه تعميره، وهو أن يطول له البقاء، لأنه لا بد للعمر من الفناء. هذا هو أحسن الوجوه التي تقدم ذكرها. ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ﴾ أي عليم بأعمالهم، لا يخفى عليه شيء منها، بل هو محيط بجميعها، حافظ لها، حتى يذيقهم بها العذاب.

وفي هذه الآية دلالة على أن الحرص على طول البقاء لطلب الدنيا ونحوه مذموم، وإنما المحمود طلب البقاء للازدياد في الطاعة، وتلافي الفائت بالتوبة والإنابة. ودرك السعادة بالإخلاص في العبادة، وإلى هذا المعنى أشار أمير المؤمنين (ع) في قوله: ((بقية عمر المؤمن لا قيمة له يدرك بها ما فات، ويحيي بها ما أمات)).

﴿قُلۡ مَن كَانَ عَدُوّٗا لِّجِبۡرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلۡبِكَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَهُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ٩٧ مَن كَانَ عَدُوّٗا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبۡرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوّٞ لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾

المعنى: فأنزل الله تعالى هذه الآية جواباً لليهود، ورداً عليهم، فقال: ﴿قُلۡ﴾ لهم يا محمد ﴿مَن كَانَ عَدُوّٗا لِّجِبۡرِيلَ﴾ إذ كان هو المنزل للكتاب عليك ﴿فَإِنَّهُۥ

﴿ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ لا من تلقاء نفسه، وإنما أضافه إلى قلبه، لأنه إذا أنزل عليه كان يحفظه ويفهمه بقلبه. ومعنى قوله: ﴿ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ بأمر الله. وقيل: أراد بعلمه، أو بإعلام الله إياه ما ينزل على قلبك. وقوله: ﴿ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ معناه: موافقاً لما بين يديه من الكتب، ومصدقاً له بأنه حق، وبأنه من عند الله، لا مكذباً لها. ﴿ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ معناه: إن كان فيما أنزله بالحرب والشدة على الكافرين، فإنه هدى وبشرى للمؤمنين. وإنما خصّ الهدى بالمؤمنين من حيث كانوا هم المهتدين به، العاملين بما فيه، وإن كان هدى لغيرهم أيضاً. وقيل: أراد بالهدى الرحمة والثواب، فلذلك خصه بالمؤمنين، ومعنى البشرى أن فيه البشارة لهم بالنعيم الدائم. وإن جعلت مصدقاً، وهدى، وبشرى، حالاً لجبريل، فالمعنى أنه يصدق بكتب الله الأولى، ويأتي بالهدى والبشرى. وإنما قال سبحانه: ﴿ عَلَىٰ قَلْبِكَ ﴾، ولم يقل على قلبي، على العرف المألوف، كما تقول لمن تخاطبه: لا تقل للقوم إن الخبر عندك، ويجوز أن تقول لا تقل لهم إن الخبر عندي، وكما تقول قال القوم جبريل عدونا. ويجوز أن تقول قالوا جبريل عدوهم.

وأما قوله تعالى: ﴿ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ ﴾ فمعناه: من كان معادياً الله، أي: يفعل فعل المعادي من المخالفة والعصيان، فإن حقيقة العداوة طلب الإضرار به، وهذا يستحيل على الله تعالى. وقيل: المراد به معاداة أوليائه كقوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ ﴾ الأحزاب: ٥٧ . وقوله: ﴿ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ ﴾ أي: ومعادياً لملائكته ورسله ﴿ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ ﴾. وإنما أعاد ذكرهما لفضلهما ومنزلتهما، كقوله تعالى: ﴿ فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴾ الرحمن: ٦٨ . وقيل: إنما أعاد ذكرهما لأن اليهود قالت: جبريل عدونا، وميكائيل ولينا. فخصهما الله بالذكر، لأن النزاع جرى فيهما فكان ذكرهما أهم، ولئلا تزعم اليهود أنهما مخصوصان من جملة الملائكة، وليسا بداخلين في جملتهم، فنص الله تعالى عليهما ليبطل ما يتأولونه من التخصيص.

ثم قال: ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴾ ولم يقل فإنه. وكرّر اسم الله لئلا يظن أن الكناية راجعة إلى جبرائيل. أو ميكائيل، ولم يقل لهم، لأنه قد يجوز أن ينتقلوا

عن العداوة بالإيمان. وقد طعن بعض المُلحدة في هذا، فقال: كيف يجوز أن يقول عاقل أنا عدو جبريل؟ وليس هذا القول من اليهود بمستنكر ولا عجب، مع ما أخبر الله تعالى عن قولهم، بعد مشاهدتهم فلق البحر، والآيات الخارقة للعادة: ﴿ ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞ ﴾الأعراف: ١٣٨، وقولهم: ﴿ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ ﴾النساء: ١٥٣، وعبادتهم العجل، وغير ذلك من جهالاتهم.

﴿ وَلَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖۖ وَمَا يَكۡفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴾

المعنى: يقول: ﴿ وَلَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ﴾ يا محمد﴿ ءَايَٰتِۭ ﴾ يعني سائر المعجزات التي أعطيها النبي (ص) عن البلخي. وقيل: هي القرآن وما فيها من الدلالات، عن أبي مسلم، وأبي علي. وقيل: هي علم التوراة والإنجيل والإخبار عما غمض مما في كتب الله السالفة، عن الأصم، كقوله تعالى: ﴿ يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ ﴾المائدة: ١٥ . ﴿ بَيِّنَٰتٖ ﴾ أي: واضحات تفصل بين الحق والباطل. ﴿ وَمَا يَكۡفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴾ ومعناه: الكافرون، وإنما سمّي الكفر فسقاً، لأن الفسق خروج من شيء إلى شيء، واليهود خرجوا من دينهم وهو دين موسى بتكذيب النبي (ص). وإنما لم يقل الكافرون، وإن كان الكفر أعظم من الفسق، لأحد أمرين أحدهما: إنَّ المراد أنهم خرجوا عن أمر الله إلى ما يعظم من معاصيه. والثاني: إن المراد به أنهم الفاسقون المتمردون في كفرهم، لأن الفسق لا يكون إلاَّ أعظم الكبائر، فإن كان في الكفر فهو أعظم الكفر، وإن كان فيما دون الكفر، فهو أعظم المعاصي.

ـ القرطبي:

قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمۡ كِتَٰبٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمۡ وَكَانُواْ مِن قَبۡلُ يَسۡتَفۡتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ البقرة: ٨٩

﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمۡ ﴾ يعني اليهود. ﴿ كِتَٰبٞ ﴾ يعني القرآن.﴿ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٞ ﴾ نعت لكتاب؛ ويجوز في غير القرآن نصبه على الحال، وكذلك هو في مصحف أبَيّ

بالنصب فيما روي.

﴿ لِّمَا مَعَهُمْ ﴾ يعني التوراة والإنجيل يخبرهم بما فيهما. ﴿ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ ﴾ أي يستنصرون. والاستفتاح الاستنصار. استفتحت: استنصرت. وفي الحديث: كان النبي (ص) يستفتح بصعاليك المهاجرين؛ أي يستنصر بدعائهم وصلاتهم. ومنه ﴿ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ ﴾المائدة: ٥٢. والنصر: فتح شيء مغلق. فهو يرجع إلى قولهم فتحت الباب. وروى النسائي عن أبي سعيد الخدري أن النبي (ص) قال: «إنما نصر الله هذه الأمة بضعفائها بدعوتهم وصلاتهم وإخلاصهم». وروى النسائي أيضاً عن أبي الدرداء قال: سمعت رسول الله (ص) يقول: «أبغوني الضعيف فإنكم إنما ترزقون وتنصرون بضعفائكم». قال ابن عباس: كانت يهود خيبر تقاتل غطفان فلما التقوا هزمت يهود، فعادت يهود بهذا الدعاء وقالوا: إنا نسألك بحق النبي الأمي الذي وعدتنا أن تخرجه لنا في آخر الزمان إلا تنصرنا عليهم. قال فكانوا إذا التقوا دعوا بهذا الدعاء فهزموا غطفان، فلما بعث النبي (ص) كفروا؛ فأنزل الله تعالى، ﴿ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ اي بك يا محمد، إلى قوله: ﴿ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ ﴾ جواب (ولما) الفاء وما بعدها في قوله: ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ ﴾ في قول الفراء، وجواب (لما) الثانية (كفروا). وقال الأخفش سعيد: جواب (لما) محذوف لعلم السامع؛ وقاله الزجاج. وقال المبرّد: جواب (لما) في قوله: (كفروا) وأعيدت (لما) الثانية لطول الكلام. ويفيد ذلك تمرير الذنب وتأكيداً له.

﴿ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ البقرة: ٩٠

قوله تعالى: ﴿ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْاْ ﴾ بئس في كلام العرب مستوفية للذم؛ كما أن

(نعم) مستوفية للمدح. وفي كل واحدة منها أربع لغات: بئس بَئس بِئس بِبئِس. نِعم نَعم نِعَم تِعمَ. ومذهب سيبويه أن «ما» فاعلة بئس، ولا تدخل إلا على أسماء الأجناس والنكرات. وكذا نِعم، فنقول نعم الرجل زيد، ونعم رجلاً زيد، فإذا كان معها اسم بغير ألف ولام فهو نصب أبداً؛ فإذا كان فيه ألف ولام فهو رفع أبداً. ونصب رجل على التمييز. وفي نعم مضمر على شريطة التفسير؛ وزيد مرفوع على وجهين: على خبر ابتداء محذوف، كأنه قيل من الممدوح؟ قلت هو زيد، والآخر على الابتداء وما قبله خبره. وأجاز أبو علي أن عليها (ما) موصولة وغير موصولة من حيث كانت مبهمة تقع على الكثرة ولا تخص واحداً بعينه، والتقدير عند سيبويه: بئس الشيء اشتروا به أنفسهم أن يكفروا. فـ(أن يكفروا) في موضع رفع بالابتداء وخبره فيما قبله، كقولك: بئس الرجل زيد، و(ما) على هذا القول موصولة. وقال الأخفش: (ما) في موضع نصب على التمييز، كقولك: بئس رجلاً زيد، فالتقدير بئس شيئاً أن يكفروا.

فـ﴿بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟﴾ على هذا القول صفة (ما). وقال الفراء: (بئسما) بجملته شيء واحد ركّب كحبّذا. وفي هذا القول اعتراض؛ لأنه يبقى فعل بلا فاعل. وقال الكسائي: (ما) و(اشتروا) بمنزلة اسم واحد قائم بنفسه؛ والتقدير بئس اشتراؤهم أن يكفروا. وهذا مردود، فإن نِعم وبئس لا يدخلان على اسم معيّن معرّف؛ والشراء قد تعرّف بإضافته إلى الضمير. قال النحّاس: وأبين هذه الأقوال قول الأخفش وسيبويه. قال الفراء والكسائي: (أن يكفروا) إن شئت كانت (أن) في موضع خفض رداً على الهاء في به. قال الفراء: أي اشتروا أنفسهم بأن يكفروا بما أنزل الله. فاشترى بمعنى باع وبمعنى إبتاع، والمعنى: بئس الشيء الذي اختاروا لأنفسهم حيث استبدلوا الباطل بالحق، والكفر بالإيمان.

قوله تعالى: ﴿بَغْيًا﴾ معناه حسداً، قاله قتادة والسدي، وهو مفعول من أجله، وهو على الحقيقة مصدر. الأصمعي: وهو مأخوذ من قولهم: قد بغى الجرح إذا فسد. وقيل: أصله الطلب ولذلك سميت الزانية بغيّاً. ﴿أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ﴾ في موضع

نصب، أي لأن ينزل، أي لأجل إنزال الله الفضل على نبيه (ص). وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وابن محيص (أن ينزل) مخففاً، وكذلك سائر ما في القرآن، إلا ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ﴾ الحجر: ٢١ في (الحجر) وفي (الأنعام) ﴿عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً﴾ الأنعام: ٣٧ .

قوله تعالى: ﴿فَبَآءُو﴾ أي رجعوا، وأكثر ما يقال في الشر؛ وقد تقدم (بغضب على غضب) تقدم معنى غضب الله عليهم، وهو عقابه؛ فقيل: الغضب الأول لعبادتهم العجل، والثاني لكفرهم بمحمد (ص)، قاله ابن عباس. وقال عكرمة: لأنهم كفروا بعيسى ثم كفروا بمحمد؛ يعني اليهود. وروى سعيد عن قتادة: الأول لكفرهم بالإنجيل، والثاني لكفرهم بالقرآن. وقال قوم: المراد التأييد وشدة الحال عليهم، لا أنه أراد غضبين معلّلين بمعصيتين.

و﴿مُّهِينٌ﴾ مأخوذ من الهوان، وهو ما اقتضى الخلود في النار دائماً بخلاف خلود العصاة من المسلمين؛ فإن ذلك تمحيص لهم وتطهير. كرجم الزاني وقطع يد السارق، على ما يأتي بيانه في سورة (النساء) من حديث أبي سعيد الخدري، إن شاء الله تعالى.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ البقرة: ٩١

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟﴾ أي صدّقوا ﴿بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ يعني القرآن ﴿قَالُوا۟ نُؤْمِنُ﴾ أي نصدق ﴿بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ يعني التوراة. ﴿وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ﴾ أي بما سواه؛ عن الفرّاء وقتادة: بما بعده؛ وهو قول أبي عبيدة، والمعنى واحد. قال الجوهري: وراء بمعنى خلْف؛ وقد تكون بمعنى قدّام. وهي من الأضداد؛ قال الله تعالى: ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ﴾ الكهف: ٧٩ أي أمامهم؛ وتصغيرها ورّيئة (بالهاء) وهي شاذة. وانتصب (وراءه) على الظرف. قال الأخفش: يقال لقيته من وراء؛ فترفعه على الغاية إذا كان غير مضاف تجعله اسماً وهو غير متمكّن؛ كقولك: من

قبل ومن بعد.

قلت: ومنه قول إبراهيم عليه السلام في حديث الشفاعة: «إنما كنت خليلاً من وراء وراء». والوراء: ولد الولد أيضاً.

قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلْحَقُّ ﴾ ابتداء وخبر. ﴿ مُصَدِّقًا ﴾ حال مؤكدة عند سيبويه ﴿ لِّمَا مَعَهُمْ ﴾ ما في موضع خفض باللام، و(معهم) صلتها، و(معهم) نصب بالاستقرار، ومن أسكن جعله حرفاً.

قوله تعالى: ﴿ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ ﴾ رد من الله تعالى عليهم في قولهم إنهم آمنوا بما أنزل عليهم، وتكذيب منه لهم وتوبيخ؛ المعنى: فكيف قتلتم وقد نهيتم عن ذلك! فالخطاب لمن حضر محمداً (ص) والمراد أسلافهم، وإنما توجه الخطاب لأبنائهم؛ لأنهم كانوا يتولّون أولئك الذين قتلوا، كما قال: ﴿ وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ ﴾ المائدة: ٨١

فإذا تولّوهم فهم بمنزلتهم. وقيل: لأنهم رضوا فعلهم فنسب ذلك إليهم. وجاء (تقتلون) بلفظ الاستقبال وهو بمعنى المضيّ لما ارتفع الإشكال بقوله: (من قبل). وإذا لم يشكل فجائز أن يأتي الماضي بمعنى المستقبل، والمستقبل بمعنى الماضي.

قوله تعالى: ﴿ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ أي إن كنتم معتقدين الإيمان فلم رضيتم بقتل الأنبياء! وقيل: (إن) بمعنى ما، وأصل (لم) لما، حذفت الألف فرقاً بين الاستفهام والخبر؛ ولا ينبغي أن يوقف عليه؛ لأنه إن وقف عليه بلا هاء كان لحناً، وإن وقف عليه بالهاء زيد في السواد.

﴿ وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾

قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ اللام لام القسم. والبينات قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ﴾ الإسراء: ١٠١ وهي العصا، والسّنون، واليد، والدم، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، وفلق البحر. وقيل: البينات التوراة، وما فيها من الدلالات.

قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ ﴾ توبيخ، و(ثم) أبلغ من الواو في التقريع؛ أي بعد النظر في الآيات والإتيان بها اتخذتم. وهذا يدل على أنهم إنما فعلوا ذلك بعد مهلة من النظر في الآيات وذلك أعظم لجرمهم.

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾

قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ ﴾ تقدم الكلام في هذا. ومعنى ﴿ وَٱسْمَعُوا۟ ﴾ أطيعوا، وليس معناه الأمر بإدراك القول فقط، وإنما المراد اعملوا بما سمعتم والتزموه، ومنه قولهم: سمع الله لمن حمده، أي قبل وأحاب.

قال: دعوتُ الله حتى خفتُ ألاّ يكون الله يسمع ما أقول (أي يقبل)

قوله تعالى: ﴿ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا ﴾ اختلف هل صدر منهم هذا اللفظ حقيقة باللسان نطقاً، أو يكونوا فعلوا فعلاً قام مقام القول فيكون مجازاً. وهذا احتجاج عليهم في قولهم: ﴿ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ﴾ قوله تعالى: ﴿ وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ ﴾ أي حب العجل. والمعنى: جعلت قلوبهم تشربه، وهذا تشبيه ومجاز عبارة عن تمكّن أمر العجل في قلوبهم. وفي الحديث: «تعرض الفتن على القلوب كالحصير عوداً عوداً فأي قلب أُشربها نكت فيه نكتة سوداء». وإنما عبّر عن حب العجل بالشرب دون الأكل لأن شرب الماء يتغلغل في الأعضاء حتى يصل إلى باطنها، والطعام مجاور لها غير متغلغل فيها. وقال السّدي وابن جريج: إن موسى عليه السلام برد العجل وذرّاه في الماء، وقال لبني إسرائيل: اشربوا من ذلك الماء، فشرب جميعهم، فمن كان يحب العجل خرجت برادة الذهب على شفتيه. وروي أنه ما شربه أحد إلا جنّ، حكاه القشيري.

قلت: أما تذريته في البحر فقد دل عليه قوله تعالى:﴿ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴾

طه: ٩٧. وأما شرب الماء وظهور البرادة على الشفاه فيردّه قوله تعالى: ﴿وَأُشْرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْۚ﴾ والله تعالى أعلم.

قوله تعالى: ﴿قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ﴾ أي إيمانكم الذي زعمتم في قولكم: نؤمن بما أنزل علينا. وقيل: إن هذا الكلام خطاب للنبي (ص) أمر أن يوبّخهم، أي قل لهم يا محمد: بئس هذه الأشياء التي فعلتم وأمركم بها إيمانكم. وقد مضى الكلام في﴿بِئْسَمَا﴾ والحمد لله وحده.

﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾

لما ادعت اليهود دعاوى باطلة حكاها الله عز وجل عنهم في كتابه، كقوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾البقرة: ٨٠، وقوله: ﴿وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰۗ﴾البقرة: ١١١، وقالوا: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾المائدة: ١٨ أكذبهم الله عز وجل وألزمهم الحجة فقال قل لهم يا محمد: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في أقوالكم، لأن من اعتقد أنه من أهل الجنة كان الموت أحب إليه من الحياة في الدنيا، لما يصير إليه من نعيم الجنة، ويزول عنه من أذى الدنيا، فأحجموا عن تمني ذلك فرَقاً من الله لقبح أعمالهم ومعرفتهم بكفرهم في قولهم: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾المائدة: ١٨ وحرصهم على الدنيا، ولهذا قال تعالى فجراً عنهم بقوله الحق: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ تحقيقاً لكذبهم. وأيضاً لو تمنوا الموت لماتوا، كما روي عن النبي (ص) أنه قال: «لو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا ورأوا مقامهم من النار». وقيل إن الله صرفهم عن إظهار التمني، وقصرهم على الإمساك ليجعل ذلك آية لنبيه (ص)، فهذه ثلاثة أوجه في تركهم التمني، وحكى عكرمة عن ابن عباس في قوله: ﴿فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ﴾ أن المراد

ادعوا بالموت على أكذب الفريقين منا ومنكم فما دعوا لعلمهم بكذبهم.

فإن قيل: فالتمني يكون باللسان تارة وبالقلب أخرى، فمن أين علم أنهم لم يتمنون بقلوبهم؟

قيل له: نطق القرآن بذلك بقوله: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا﴾ ولو تمنوه بقلوبهم لأظهروه بألسنتهم رداً على النبي (ص) وإبطالاً لحجته، وهذا بيّن).

قوله تعالى: ﴿خَالِصَةً﴾ نصب على خبر كان، وإن شئت كان حالاً، ويكون ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ في موضع الخبر ﴿أَبَدًا﴾ ظرف زمان يقع على القليل والكثير، كالحين والوقت، وهو هنا من أول العمر إلى الموت. و(ما) في قوله: ﴿بِمَا﴾ بمعنى الذي والعائد محذوف، والتقدير قدّمته، وتكون مصدرية ولا تحتاج إلى عائد. و﴿أَيْدِيهِمْ﴾ في موضع رفع، حذفت الضمة من الياء لثقلها مع الكسرة وإن كانت في موضع نصب حركتها، لأن النصب خفيف، ويجوز إسكانها في الشعر.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ابتداء وخبر.

﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ﴾ يعني اليهود. ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟﴾ قيل: المعنى وأحرص؛ فحذف ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟﴾ لمعرفتهم بذنوبهم وألا خير لهم عند الله؛ ومشركوا العرب لا يعرفون إلا هذه الحياة ولا علم لهم من الآخرة. والضمير في ﴿أَحَدُهُمْ﴾ يعود في هذا القول على اليهود. وقيل: إن الكلام تم في ﴿حَيَوٰةٍ﴾ ثم استؤنف الإخبار عن طائفة منه المشركين. قيل: هم المجوس؛ وذلك بيّن في أدعياتهم للعاطس بلغاتهم بما معناه ـ عش ألف سنة ـ وخصّ الألف بالذكر لأنها نهاية العِقد في الحساب. وذهب الحسن إلى أن ﴿ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟﴾ مشركو العرب، خصّوا بذلك لأنهم لا يؤمنون بالبعث، فهم يتمنون طول العمر. وأصل سنة سنّهة. وقيل سنْوة. وقيل: في الكلام تقديم وتأخير؛ والمعنى ولتجدنهم وطائفة من

الذين أشركوا أحرص الناس على حياة.

قوله تعالى:﴿ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ أصل (يود) يوْدَد، أدغمت لئلا يجمع بين حرفين من جنس واحد متحركين؛ وقلبت حركة الدال على الواو؛ ليدل ذلك على أنه يفعل. وحكى الكسائي: ودَدت، فيجوز على هذا يودِ بكسر الواو. ومعنى يوَد: يتمنّى.

قوله تعالى: ﴿ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ﴾ اختلف النحاة في هو، فقيل: هو ضمير الأحد المتقدّم، التقدير ما أحدهم بمزحزحه، وخبر الابتداء في المجرور. ﴿ أَن يُعَمَّرَ ﴾ فاعل بمزحزح. وقالت فرقة: هو ضمير التعمير، والتقدير وما التعمير بمزحزحه، والخبر في المجرور.

﴿ أَن يُعَمَّرَ ﴾ بدل من التعمير على هذا القول. وحكى الطبري عن فرقة أنها قالت: (هو) عماد قلت: وفيه بعد، فإن حق العماد أن يكون بين شيئين متلازمين، مثل قوله: ﴿ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ ﴾الأنفال: ٣٢، وقوله: ﴿ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾الزخرف: ٧٦ ونحن ذلك وقيل: (ما) عاملة حجازية، و(هو) اسمها، والخبر في (بمزحزحة). وقالت طائفة: (هو) ضمير الأمر والشأن. ابن عطية: وفيه بعد، فإن المحفوظ عن النحاة أن يفسّر بجملة سالمة من حرف جر. وتباعد؛ يكون لازماً ومتعدّياً.

قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ أي بما يعمل هؤلاء الذين يود أحدهم أن يعمّر ألف سنة. ومن قرأ بالتاء فالتقدير عنده: قل لهم يا محمد الله بصير بما تعملون. وقال العلماء: وصف الله عز وجل نفسه بأنه بصير على معنى أنه عالم بخفيات الأمور. والبصير في كلام العرب العالم بالشيء الخبير به؛ ومنه قولهم: فلان بصير بالطب، وبصير بالفقه، وبصير بملاقاة الرجال.

﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾

سبب نزولها أن اليهود قالوا للنبي (ص): إنه ليس نبي من الأنبياء إلاّ أن يأتيه ملك من الملائكة من عند ربه بالرسالة وبالوحي، فمن صاحبك حتى نتابعك؟ قال «جبريل» قالوا: ذاك الذي ينزل بالحرب وبالقتال، ذاك عدونا لو قلت: ميكائيل الذي ينزل بالقطر وبالرحمة تابعناك، فأنزل الله الآية إلى قوله: ﴿ لِّلۡكَٰفِرِينَ ﴾ أخرجه الترمذي. وقوله تعالى: ﴿ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلۡبِكَ ﴾ الضمير في «إنه» يحتمل معنيين، الأول: فإن الله نزل جبريل على قلبك الثاني: فإن جبريل نزل بالقرآن على قلبك. وخص القلب بالذكر لأنه موضع العقل والعلم وتلقي المعارف. ودلّت الآية على شرف جبريل عليه السلام وذم مُعَادية. وقوله تعالى: ﴿ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ ﴾ أي بإرادته وعلمه. ﴿ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ ﴾ يعني التوراة. ﴿ وَهُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ تقدم معناه.

ـ قوله تعالى: ﴿ مَن كَانَ عَدُوّٗا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبۡرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوّٞ لِّلۡكَٰفِرِينَ ﴾.

﴿ مَن كَانَ عَدُوّٗا لِّلَّهِ ﴾ شرط، وجوابه ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوّٞ لِّلۡكَٰفِرِينَ ﴾. وهذا وعيد وذم لمعادي جبريل عليه السلام، وإعلان أن عداوة البعض تقتضي عداوة الله لهم. وعداوة العبد لله هي معصيته واجتناب طاعته، ومعاداة أوليائه، وعداوة الله للعبد تعذيبه وإظهار أثر العداوة عليه. فإن قيل: لم خصّ الله جبريل وميكائيل بالذكر وإن كان ذكر الملائكة قد عمّهما؟

قيل له: خصّهما بالذكر تشريفاً لهما، كما قال: ﴿ فِيهِمَا فَٰكِهَةٞ وَنَخۡلٞ وَرُمَّانٞ ﴾ الرحمن: ٦٨. وقيل: خصّا لأن اليهود ذكروهما، ونزلت الآية بسببهما، فذكرهما واجب لئلا تقول اليهود: إنا لم نعاد الله وجميع ملائكته: فنص الله تعالى عليهما لإبطال ما يتأولونه من التخصيص.

قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖۖ وَمَا يَكۡفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴾

قال ابن عباس رضي الله عنهما: هذا جواب لابن صوريا حيث قال لرسول الله (ص): يا محمد ما جئتنا بشيء نعرفه، وما أنزل عليك من آية بيّنة فنتبعك بها؟ فأنزل

الله هذه الآية، ذكره الطبري.

- الشيرازي:

﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾ ﴾

سبب النّزول:

روي عن الإمام الصادق(ع) قال: ((كَانَتِ الْيَهُودُ تَجِدُ فِي كُتُبِهَا أَنَّ مُهاجَرَ (مكان هجرة) محمّد رَسول الله (ص) ما بين (جبلي) عَيْر وَأُحد، فخرجوا يطلبون الموضع، فمرّوا بجبل يقال له حداد، فقالوا: حداد وأُحد سواء، فتفرّقوا عنده، فنزل بعضهم بتيماء وبعضهم بفدك وبعضهم بخيبر، فاشتاق الذين بتيماء إلى بعض أخوانهم، فمرّ بهم أعرابي من قيس فتكاروا منه (أي استأجروا إبله) وقال لهم: أمرّ بكم ما بين عَيْر وأُحد، (فعلموا أنهم أصابوا ضالّتهم) فقالوا له: إذا مررت بهما فآذنّا (أخبرنا) بهما، فلما توسط بهم أرض المدينة، قال: ذلك عَير، وهذا أُحد، فنزلوا عن ظهر إبله، وقالوا: قد أصبنا بغيتنا فلا حاجة بنا إلى إبلك، فاذهب حيث شئت، وكتبوا إلى إخوانهم الذين بفدك وخيبر أنا قد أصبنا الموضع فهلمّوا إلينا، فكتبوا إليهم أنّا قد استقرت بنا الدار واتخذنا بها الأموال، وما أقربنا منكم، فإن كان ذلك فما أسرعنا إليكم، واتخذوا بأرض المدينة أموالاً فلما كثرت أموالهم بلغ ذلك تُبّعاً فغزاهم، فتحصنوا منه، فحاصرهم ثمّ أمّنهم، فنزلوا عليه، فقال لهم: إنّي قد استطبت بلادكم، ولا أراني إلاَّ مقيماً فيكم. فقالوا له: ليس لك ذلك، إنها مهاجر نبي، وليس ذلك لأحد حتى يكون ذلك، فقال لهم: فإني مخلف فيكم من أُسرتي من إذا كان ذلك ساعده ونصره، فخلف حين تراهم الأوس والخزرج، فلما كثروا بها كانوا يتناولون أموال اليهود،

فكانت اليهود تقول لهم: أما لو بعث محمّد لنخرجنكم من ديارنا وأموالنا، فلما بعث الله محمّداً(ع) آمنت به الأنصار وكفرت به اليهود، وهو قوله تعالى: ﴿وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ إلى آخر الآية».

نعم، هذه الفئة التي كانت تبحث بولع شديد عن منطلق البعثة المحمّدية، لتكون أول من تؤمن برسول الله(ص)، وكانت تفتخر أمام الأوس والخزرج بأنها ستكون من خاصة صحابة النّبي المبعوث، إذا هي تقف ـ بسبب لجاجها وعنادها ـ إلى جانب أعداء النّبي، بينما التف حول الرّسول من كان بعيداً عن هذه الأجواء.

وهذه الآيات تتحدث أيضاً عن اليهود ومواقفهم، هؤلاء ـ كما ورد في أسباب النّزول ـ هاجروا ليتخذوا من يثرب سكناً بعد أن وجدوا فيها ما يشير إلى أنها أرض الرّسول المرتقب، وبقوا فيها ينتظرون بفارغ الصبر النّبي الذي بشرت به التوراة، كما كانوا ينتظرون الفتح والنصر على الذين كفروا تحت لواء هذا النّبي، لكنهم مع كل ذلك أعرضوا عن الرّسول وعن الرسالة ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

وهكذا تستطيع الأهواء والمصالح الشخصية أن تقف بوجه طالب الحقيقة، مهما كان الفرد عاشقاً لهذه الحقيقة وتوّاقاً للوصول إليها فيتركها ويعرض عنها، بل تستطيع الأهواء أيضاً أن تحوّل هذا الفرد إلى عدوّ لدود لهذه الحقيقة.

ما أشدّ خسارة هؤلاء اليهود، تركوا أوطانهم وهاموا في الأرض بحثاً عن علامات أرض الرسالة، ثم ها هم خسروا كل شيء، وباعوا أنفسهم بأسوأ ثمن: ﴿بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ﴾.

لقد ضيعوا كل شيء وكأنهم أرادوا أن يكون النّبي الموعود من بني إسرائيل، ولهذا تألّموا من نزول القرآن على غيرهم، بل ممن شاءه الله: ﴿أَن يَكْفُرُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾.

ولذلك شملهم غضب الله المتوالي: ﴿فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ

عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾.

غضب على غضب:

القرآن الكريم قال عن بني إسرائيل حين تاهوا في صحراء سيناء بأَنَّهُمْ ﴿وَبَاءُوَ بِغَضَب مِنَ الله﴾ بسبب كفرهم بآيات اللّه وقتلهم الأنبياء وفي سورة آل عمران الآية ١٢، ورد هذا المعنى أيضاً وأن اليهود بسبب كفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء باءوا بغضب من الله تعالى. وهذا هو الغضب الأوّل.

وهؤلاء أحفادهم من اليهود المعاصرين للبعثة المحمّدية ساروا على طريق أسلافهم في الكفر بالرسالة، وزادوا على ذلك بوقوفهم بوجه الرّسول وتآمرهم على الدعوة ولذلك قال عنهم ((فباءو بغضب على غضب)).

و((باءُو)) بمعنى رجعوا ـ وأقاموا في المكان ـ وهنا تعني استحقاقهم لعذاب الله. فكأنهم عادوا وهم محملون بهذا الغضب الإلهي، أو كأنهم اتخذوا موقفاً يغضب الله.

هؤلاء القوم كانوا يعيشون أمل ظهور النّبي المنقذ، قبل دعوة موسى وقبل دعوة النّبي الخاتم(ص)، وكان موقفهم من الرّسولين الكريمين واحداً، هو النكول والإعراض، واستحقوا غضب الله وسخطه مرّة بعد أُخرى.

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾ ۞ وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُواْ ۖ قَالُواْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾

يشير القرآن مرّة أُخرى إلى عصبية اليهود القومية ويقول:

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ ﴾.

فهم لم يؤمنوا بالإنجيل ولا بالقرآن، بل إنهم يدورون حول محور العنصرية والمصلحية، فيجرأون على رفض الدعوة التي جاءت تصديقاً لما معهم في التوراة﴿ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ﴾.

ويكشف القرآن زيف ادعائهم مرة أُخرى حين يقول لهم: ﴿ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ هؤلاء يدّعون أنهم يؤمنون بما أنزل عليهم، فهل التوراة تبيح لهم قتل الأنبياء؟!

وهذا الذي يقوله بنو إسرائيل: ﴿ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ﴾ ينطلق من روح ذاتية فردية أو فئوية، وهي تخالف روح التوحيد. فالتوحيد يستهدف القضاءَ على كل المحاور الذاتية في حركة الإنسان ومواقفه، وتكريس نشاطات الفرد حول محور العبودية لله لا غير.

بعبارة أُخرى، لو كان الإنصياع للأوامر الإلهية متوقفاً على نزولها عليهم، فهو الشرك لا الإيمان، وهو الكفر لا الإسلام، ومثل هذا الإنصياع ليس بدليل على الإيمان قط.

وعبارة ﴿ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾ تحمل مفهوم نفي كل ذاتية بشرية في الرسالة، بما في ذلك ذات النّبي المرسل، فلم تتضمن العبارة اسم محمّد وعيسى وموسى عليهم أفضل الصلاة والسلام، بل التأكيد على الإيمان بما أنزل الله تعالى.

ويعرض القرآن وثيقة أُخرى لإدانة اليهود ولكشف زيف ادعائهم فيقول: ﴿ وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾.

ما هذا الإنحراف نحو عبادة العجل بعد أن جاءتكم البينات إن كنتم في إيمانكم صادقين؟! لو كنتم آمنتم به حقّاً، فَلِمَ تبدّل إيمانكم إلى كفر عند غياب موسى وذهابه إلى جبل الطور، وبذلك ظلمتم أنفسكم ومجتمعكم والأجيال المتعاقبة بعدكم؟!

في الآية الثالثة يطرح القرآن وثيقة إدانة أُخرى، فيشير إلى مسألة ميثاق جبل الطور ويقول: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا ﴾.

وما كان عصيانهم إلاَّ عن انغماس في حبّ الدنيا الذي تمثّل في حبّ عجل السّامري الذّهبي: ﴿ وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ ﴾ ولذا نسوا الله عزَّ وجلَّ؟! كيف يجتمع الإيمان بالله مع قتل انبيائه وعبادة العجل ونقض العهود والمواثيق الإلهية المؤكدة؟! أجل ﴿ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾.

١ ـ عبارة ﴿ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا ﴾ ليست حكاية عمّا قالوه بألسنتهم، بل حسب الظاهر هي تعبير عن واقع عملي لهؤلاء القوم، وكناية رائعة عن إنحرافهم.

٢ ـ عبارة ﴿ وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ ﴾ هي أيضاً كناية رائعة تعبّر عن وضع هذه الجماعة.

والإشراب له معنيان كما ورد في المفردات: الإحكام كقولك ((أشربت البعير)) إذا شددت رقبته بالحبل. وكذلك الإرواء، ويكون المعنى على الوجهين أنّ حبّ العجل قد غمر قلوب بني إسرائيل واستحكم في أنفسهم.

والعبارة توحي أيضاً ما يصدر عن هؤلاء القوم من إنحراف، إنما هو ظاهرة طبيعية ناتجة عن تغلغل روح الشرك في قلوبهم. والقلوب التي أُشربت الشرك لا يصدر عنها إلاَّ القتل والإنكار والخيانة.

﴿ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ البقرة: ٩٤ - ٩٦

يبدو من تاريخ اليهود ـ مضافاً لما أخبر القرآن عنه ـ أنّ هؤلاء القوم كانوا

يعتبرون أنفسهم فئة متميزة في العنصر، ومتفوقة على سائر الأجناس البشرية، وكانوا يعتقدون أنّ الجنّة خلقت لهم لا لسواهم، وأن نار جهنم لن تمسّهم، وأنّهم أبناء الله وخاصته، وأنّهم يحملون جميع الفضائل والمحاسن.

هذا الغرور الأرعن تعكسه كثير من آيات الذكر الحكيم الآية (١٨) من سورة المائدة تقول عن لسانهم: ﴿ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ﴾المائدة: ١٨ . وفي الآية١١١ من سورة البقرة نرى إدعاءً آخر لهم: ﴿ وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ﴾البقرة: ١١١، وهكذا في الآية ٨٠ من سورة البقرة: ﴿ وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ﴾البقرة: ٨٠ .

هذه التصورات الموهومة كانت تدفعهم من جهة إلى الظلم والجريمة والطغيان، وتبعث فيهم ــ من جهة أُخرى ــ الغرور والتكبّر والإستعلاء.

والقرآن الكريم يجيب هؤلاء القوم جواباً دامغاً إذ يقول: ﴿ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾.

ألا تحبّون رحمة الله وجواره ونيل النعيم الخالد في الجنان؟ ألا يحب الحبيب لقاء حبيبه؟!

لقد كان اليهود يهدفون من كلامهم هذا وأن الجنّة خالصة لنا دون سائر النّاس: أو أن النار لاتمسّنا إلاّ أيّاماً معدودات ــ إلى توهين إيمان المسلمين وتخدير عقائدهم.

لماذا تفرون من الموت، وكل ما في الآخرة من نعيم هو لكم كما تدّعون؟! لماذا هذا الإلتصاق بالأرض وبالمصالح الذاتية الفردية، إن كنتم مؤمنين بالآخرة وبنعيمها حقّاً؟!

بهذا الشكل فضح القرآن أُكذوبة هؤلاء وبيّن زيف ادعائهم.

في الآية التّالية تأكيد على ما سبق بشأن ابتعاد القوم عن الموت: ﴿ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴾.

هؤلاء يعلمون ما في ملفّ أعمالهم من وثاق سوداء ومن صحائف إدانة، والله

عليم بكل ذلك، ولذلك فهم لا يتمنون الموت، لأنه بداية حياة يحاسبون فيها على كل أعمالهم.

الآية الأخيرة تذكر انشداد هؤلاء بالأرض وحرصهم الشديد على المال والمتاع: ﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ ﴾ وتذكر الآية أن حرصهم هذا يفوق حرص الذين أشركوا: ﴿ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ﴾.

المشركون ينبغي أن يكونوا أحرص من غيرهم على جمع المال والمتاع، لكن هؤلاء من أصحاب الإدعاءات الفارغة، بلغوا من الحرص ما لم يبلغه المشركون.

وبلغ شغفهم بالدنيا أنّه ﴿ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ لجمع مزيد من متاع الدنيا، أو خوفاً من عقاب الآخرة! لكن هذا العمر الذي يتمناه كل واحد منهم لا يبعده عن العذاب، ولا يغيّر من مصيره شيئاً ﴿وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ﴾ إذ كل شيء محصى لدى الله، ولا يعزب عن عمله شيء ﴿ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾.

١ ـ المقصود من الأعوام الألف في قوله تعالى: ﴿ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ ليس هذا العدد المعروف، بل يعني العمر الطويل المديد، فهو ليس للتعدد، بل للتكثير.

وذهب بعض المفسرين إلى أن العرب لم تكن تعرف أنذاك عدداً أكبر من الألف، ولم يكن لما يزيد على الألف اسم عند العرب، ولذلك كان أبلغ تعبير عن الكثرة!.

٢ ـ تنكير الحياة في تعبير الآية ﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ ﴾ تفيد ـ كما ذهب إلى ذلك جمع من المفسرين ـ الإستهانة والتحقير، أي: إن هؤلاء حريصون حتى على أتفه حياة وأرخصها وأشقاها، ويفضلونها على الآخرة.

عوامل الخوف من الموت:

أكثر النّاس يخافون من الموت، وخوفهم هذا يعود إلى عاملين:

١ ـ الخوف من الفناء والعدم، فالذين لا يؤمنون بالآخرة لا يرون بعد هذه الحياة استمرار لحياتهم، ومن الطبيعي أن يخاف الإنسان من الفناء، وهذا الخوف

يلاحق هؤلاء حتى في أسعد لحظات حياتهم فيحوّلها إلى علقم في أفواههم.

٢ ـ الخوف من العقاب، ومثل هذا الخوف يلاحق المذنبين المؤمنين بالآخرة، فيخافون أن يحين حينهم وهم مثقلون بالآثام والأوزار، فينالوا جزاءهم، ولذلك يودّون أن تتأخّر ساعة انتقالهم إلى العالم الآخر.

الأنبياء العظام أحيوا في القلوب الإيمان باليوم الآخر، وبذلك أبعدوا شبح الفناء والإنعدام من الأذهان، وبينوا أن الموت انتقال إلى حياة أبدية خالدة منعّمة.

من جهة أُخرى دعا الأنبياء إلى العمل الصالح، كي يبتعد الإنسان عن الخوف من العقاب، ولكي يزول عن القلوب والأذهان كل خوف من الموت.

﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴾.

أسباب النّزول

روي عن ابن عباس أن سبب نزول هذه الآية، ما روي أن ابن صوريا وجماعة من يهود أهل فدك، لما قدم النّبي(ص) المدينة، سألوه أسئلة، وكان رسول الله يجيبهم وهم يصدّقون جوابه، من ذلك أنهم قالوا له: يا محمّد كيف نومك؟ فقد أُخبرنا عن نوم النّبي الذي يأتي في أواخر الزمان، فقال: تنام عيناي وقلبي يقظان. قالوا: صدقت يا محمّد ... ثم قال له ابن صوريا: خصلة واحدة إن قلتها آمنت بك واتبعتك: أيّ ملك يأتيك بما يُنزل الله عليك؟ قال: جبريل. قال ابن صوريا: ذاك عدونا ينزل بالقتال والشدة والحرب، وميكائيل ينزل باليسر والرخاء، فلو كان ميكائيل هو الذي يأتيك لآمنّا بك!!.

سبب نزول الآية الكريمة يبيّن طبيعة العناد واللجاج والجدل في اليهود، إبتداء من زمان موسى(ع) ومروراً بعصر خاتم الأنبياء وحتى يومنا هذا يعرضون عن الحقّ

بألوان الحجج الواهية.

حجّتهم في هذا الموضع المذكور في الآية ثقل التكاليف التي يأتي بها جبرائيل، وعداؤهم لهذا الملك، ورغبتهم في أن يكون ميكائيل أميناً للوحي!! وكأن الملائكة هم مصدر الاحكام الإلهية! والقرآن الكريم يصرّح بأن الملائكة ينفّذون أوامر الله ولا ينحرفون عن طاعته: ﴿ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ ﴾التحريم: ٦.

القرآن يجيب عن ذريعة هؤلاء: ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ وما جاء به جبرائيل يصدّق ما نزل في الكتب السماوية السابقة: ﴿ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ ﴾وهو إضافة إلى كل هذا: ﴿وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾.

فالجواب في هذه الآية ينطوي على ثلاث شعب:

أوّلاً: إنَّ جبريل لا يأتي بشيء من عنده، بل ما يأتي به هو ﴿بِإِذْنِ الله﴾.

ثانياً: ما جاء به جبريل تصدّقه الكتب السماوية السابقة، لانطباقه على العلامات والدلالات المذكورة في تلك الكتب.

ثالثاً: محتوى ما جاء به جبرائيل يدلّ على أصالته وحقّانيته.

الآية التالية تؤكد نفس هذا الموضوع تأكيداً مقروناً بالتهديد وتقول: ﴿ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴾البقرة: ٩٨

مشيرة بذلك إلى أن موقف الإنسان من الله وملائكته ورسله ومن جبرئيل وميكائيل، لا يقبل التفكيك، وأن الموقف المعادي من أحدهم هو معاداة للآخرين.

وبعبارة أُخرى: الأوامر الإلهية الباعثة على تكامل الإنسان، تنزل عن طريق الملائكة على الرسل، وإن كان بين مهمات الملائكة اختلاف، فذلك يعود إلى تقسيم المسؤوليات لا إلى التناقض بين المهمات، واتخاذ موقف معاد من أحدهم هو عداء الله سبحانه.

جِبْرِيل وَمِيكَال:

ورد اسم جبريل ثلاث مرات، واسم ميكال مرة واحدة في القرآن الكريم. ويستفاد

من الآيات أنّهما ملكان مقرّبان من ملائكة الله تعالى. قيل: إنَّ اسم جبرئيل عبري يعني ((رجل الله)) أو ((قوة الله)) (جبر: تعني الرجل أو القوّة، و ئيل: بمعنى الله).

هذه الآيات الكريمة تعرّف جبريل أنه رسول الوحي الإلهي إلى النّبي، ومنزّل القرآن على قلبه، ولواسطة الوحي اسم آخر في الآية ١٠٢ من سورة النحل هو: ﴿ رُوحُ ٱلْقُدُسِ ﴾النحل: ١٠٢ أمّا الآية ١٩١ من سورة الشعراء فتسميه ﴿ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴾الشعراء: ١٩٣، ويصرّح المفسرون أن المقصود من روح القدس والروح الأمين، هو جبرئيل.

وهناك أحاديث تدور حول تشكل جبرائيل بصور متعددة لدى نزوله على النّبي، وكان في المدينة ينزل على صورة (دحية الكلبي) وهو رجل جميل الطلعة.

يستفاد من سورة النجم أن النّبي (ص) شاهد جبرائيل مرّتين على هيئته الأصلية.

ذكرت المصادر الإسلامية أسماء أربعة من الملائكة المقربين هم: جبرائيل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل، وأعظمهم مرتبة جبرائيل.

وفي كتب اليهود ورد ذكر جبريل وميكال، ومن ذلك ما ورد في كتاب دانيال حيث وصف جبرائيل بأنه الغالب لرئيس الشياطين، ووصف ميكائيل بأنه حامي قوم بني إسرائيل.

ذكر بعض المحققين أن المصادر اليهودية خالية من الدلالة على خصومة جبرائيل لهؤلاء القوم، وهذا يؤيد أن ادعاءات اليهود بشأن موقفهم من جبرائيل، لم يكن إلاَّ ذريعة للتنصل من الإسلام إذ لا يوجد في مصادرهم الدينية ما يشير إلى وجود مثل هذه العداوة بينهم وبين جبرئيل.

﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾

قال ابن عباس: إن ابن صوريا ـ وهو من أحبار اليهود ـ قال لرسول الله (ص):

يا محمّد ما جئتنا بشيء نعرفه، وما أنزل الله عليك من آية بيّنة فنتبعك لها، فأنزل الله هذه الآية.

الآية الأُولى تشير إلى الآيات والعلامات والدلائل الكافية الواضحة التي توفرت لدى رسول الله(ص)، وتؤكد أن المعرضين عن هذه الآيات البينات أدركوا في الواقع حقّانية الدعوة، لكنهم هبّوا للمعارضة مدفوعين بأغراضهم الشخصية: ﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾.

التفكير في آيات القرآن ينير الطريق لكل طالب حق منصف، وبمطالعة هذه الآيات يمكن فهم صدق دعوة نبي الإسلام (ص)، وعظمة القرآن.

لكن هذه الحقيقة الواضحة لا يفهمها الذين انطفأ نور قلوبهم بسبب الذنوب، من هنا نرى الفاسقين الملوثين بالخطايا يعرضون عن الإيمان بالرسالة.

ثم يتطرق القرآن إلى صفة مجموعة من اليهود، وهي صفة النكول ونقض العهود والمواثيق، وكأنها صفة تأريخية تلازمهم على مرّ العصور.

ـ الفخر الرازي:

﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾

البقرة: ٨٩

اعلم أن هذا نوع من قبائح اليهود. أما قوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ﴾ فقد اتفقوا على أن هذا الكتاب هو القرآن لأن قوله تعالى﴿مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾ يدل على أن هذا الكتاب غير ما معهم وما ذاك إلاّ القرآن. أما قوله تعالى: ﴿مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾ ففيه مسألتان:

المسألة الأولى: لا شبهة في أن القرآن مصدق لما معهم في أمر يتعلق بتكليفهم بتصديق محمد صلى الله عليه وسلم في النبوة، واللائق بذلك هو كونه موافقاً لما معهم في دلالة نبوته إذ قد عرفوا أنه ليس بموافق لما معهم في سائر الشرائع وعرفنا

أنه لم يرد الموافقة في باب أدلة القرآن، لأن جميع كتب الله كذلك ولما بطل الكل ثبت أن المراد موافقته لكتبهم فيما يختص بالنبوة وما يدل عليها من العلامات والنعوت والصفات.

المسألة الثانية: قرئ: ﴿مُصَدِّقٌ﴾ على الحال، فإن قيل: كيف جاز نصبها عن النكرة؟ قلنا: إذا وصفت النكرة تخصصت فصح انتصاب الحال عنها وقد وصف ﴿كِتَٰبٌ﴾ بقوله:﴿مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾.

أما قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ﴾ ففيه مسائل:

المسألة الأولى: تدل الآية على أنهم كانوا عارفين بنبوته وفيه سؤال: وهو أن التوراة نقلت نقلاً متواترًا، فإما أن يقال: إنه حصل فيها نعت محمد (صلى الله عليه وسلم) على سبيل التفصيل، أعني بيان أن الشخص الموصوف بالصورة الفلانية والسيرة الفلانية سيظهر في السنة الفلانية في المكان الفلاني، أو لم يوجد هذا الوصف على هذا الوجه، فإن كان الأول كان القوم مضطرين إلى معرفة شهادة التوراة على صدق محمد (عليه الصلاة والسلام) فكيف يجوز على أهل التواتر إطباقهم على الكذب وإن لم يكن الوصف على هذه الصفة لم يلزم من الأوصاف المذكورة في التوراة كون محمد (صلى الله عليه وسلم) رسولاً، فكيف قال الله تعالى:﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ﴾ ؟ والجواب: أن الوصف المذكور في التوراة كان وصفاً إجمالياً وأن محمداً (صلى الله عليه وسلم) لما لم يعرفوا نبوته بمجرد تلك الأوصاف، بل بظهور المعجزات صارت تلك الأوصاف كالمؤكدة، فلهذا ذمهم الله تعالى على الإنكار.

المسألة الثانية: يحتمل أن يقال: كفروا به لوجوه. أحدها: أنهم كانوا يظنون أن المبعوث يكون من بني إسرائيل لكثرة من جاء من الأنبياء من بني إسرائيل وكانوا يرغبون الناس في دينه ويدعونهم إليه، فلما بعث الله تعالى محمداً من العرب من نسل إسماعيل صلوات الله عليه، عظم ذلك عليها فأظهروا التكذيب وخالفوا طريقهم الأول. وثانيها: اعترافهم بنبوته كان يوجب عليهم زوال رياساتهم وأموالهم

فأبوا وأصرّوا على الإنكار. وثالثها: لعلهم ظنوا أنه مبعوث إلى العرب خاصة فلا جرم كفروا به.

المسألة الثالثة: أنه تعالى كفرهم بعد ما بين كونهم عالمين بنبوته، وهذا يدل على أن الكفر ليس هو الجهل بالله تعالى فقط.

أما قوله تعالى: ﴿ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ فالمراد الإبعاد من خيرات الآخرة، لأن المبعد من خيرات الدنيا لا يكون ملعوناً. فإن قيل: أليس أنه تعالى ذكر في الآية المتقدمة: ﴿ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾البقرة: ٨٣ وقال:﴿ وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾الأنعام: ١٠٨ قلنا: العام قد يتطرق إليه التخصيص على أنا بينا فيما قبل أن لعن من يستحق اللعن من القول الحسن، والله أعلم.

﴿ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾

أما قوله تعالى: ﴿ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ ﴾ ففيه مسألتان:

المسألة الأولى: «ما» نكرة منصوبة مفسرة لفاعل بئس بمعنى بئس الشيء شيئاً اشتروا به أنفسهم والمخصوص بالذم «أن يكفروا».

المسألة الثانية: في الشراء ههنا قولان: أحدهما: أنه بمعنى البيع، وبيانه أنه تعالى لما مكن المكلف من الإيمان الذي يفضي به إلى الجنة والكفر الذي يؤدي به إلى النار صار اختياره لأحدهما على الآخر بمنزلة اختيار تملك سلعة على سلعة فإذا اختار الإيمان الذي فيه فوزه ونجاته. قيل: نعم ما اشترى، ولما كان الغرض بالبيع والشراء هو إبدال ملك يملك صلح أن يوصف كل واحد منهما بأنه بائع ومشتر لوقوع هذا المعنى من كل واحد منهما فصح تأويل قوله تعالى: ﴿ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ﴾ بأن المراد باعوا أنفسهم بكفرهم لأن الذي حصلوه على منافع أنفسهم لما كان هو الكفر صاروا بائعين أنفسهم بذلك. الوجه الثاني: وهو الأصح عندي أن

المكلف إذا كان يخاف على نفسه من عقاب الله يأتي بأعمال يظن أنها تخلصه من العقاب فكأنه قد اشترى نفسه بتلك الأعمال، فهؤلاء اليهود لما اعتقدوا فيما أتوا به أنها تخلصهم من العقاب، وتوصلهم إلى الثواب فقد ظنوا أنهم اشتروا أنفسهم بها، فذمهم الله تعالى، وقال: ﴿ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ﴾ وهذا الوجه أقرب إلى المعنى واللفظ من الأول، ثم إنه تعالى بين تفسير ما اشتروا به أنفسهم بقوله تعالى: ﴿ أَن يَكْفُرُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾ ولا شبهة أن المراد بذلك كفرهم بالقرآن لأن الخطاب في اليهود وكانوا مؤمنين بغيره، ثم بين الوجه الذي لأجله اختاروا هذا الكفر بما أنزل الله فقال: ﴿ بَغْيًا ﴾ وأشار بذلك إلى غرضهم بالكفر كما يقال يعادي فلان فلاناً حسداً تنبيهاً بذلك على غرضه ولولا هذا القول لجوزنا أن يكفروا جهلاً لا بغياً.

واعلم أن هذه الآية تدل على أن الحسد حرام. ولما كان البغي قد يكون لوجوه شتى بين تعالى غرضهم من هذا البغي بقوله: ﴿ أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ﴾ والقصة لا تليق إلاّ بما حكيناه من أنهم ظنوا أن هذا الفضل العظيم بالنبوة المنتظرة يحصل في قومهم فلما وجدوه في العرب حملهم ذلك على البغي والحسد.

أما قوله تعالى: ﴿ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ﴾ ففيه مسائل:

المسألة الأولى: في تفسير الغضبين وجوه، أحدها: أنه لا بد من إثبات سببين للغضبين. أحدهما: ما تقدم وهو تكذيبهم عيسى (عليه السلام) وما أنزل عليه والآخر تكذيبهم محمد عليه الصلاة والسلام وما أنزل عليه فصار ذلك دخولاً في غضب بعد غضب وسخط بعد سخط من قبله تعالى لأجل أنهم دخلوا في سبب بعد سبب، وهو قول الحسن والشعبي وعكرمة وأبي العالية وقتادة، الثاني: ليس المراد إثبات غضبين فقط بل المراد إثبات أنواع من الغضب مترادفة لأجل أمور مترادفة صدرت عنهم نحو قولهم: ﴿ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ ﴾ التوبة: ٣٠. ﴿ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ﴾ المائدة: ٦٤ . ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ﴾ آل عمران: ١٨١ وغير ذلك من أنواع كفرهم، وهو قول عطاء وعبيد بن عمير، الثالث: أن المراد به تأكيد الغضب وتكثيره لأجل أن هذا الكفر وإن كان واحداً

إلاّ أنه عظيم، وهو قول أبي مسلم. الرابع: الأول بعبادتهم العجل والثاني بكتمانهم صفة محمد وجحدهم نبوته عن السدي.

المسألة الثانية: الغضب عبارة عن التغير الذي يعرض للإنسان في مزاجه عند غليان دم قلبه بسبب مشاهدة أمر مكروه وذلك محال في حق الله تعالى، فهو محمول على إرادته لمن عصاه الإضرار من جهة اللعن والأمر بذلك.

المسألة الثالثة: أنه يصح وصفه تعالى بالغضب وأن غضبه يتزايد ويكثر، ويصح فيه ذلك كصحته من العذاب فلا يكون غضبه على من كفر بخصلة واحدة كغضبه على من كفر بخصال كثيرة.

أما قوله تعالى: ﴿ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ ففيه مسائل:

المسألة الأولى: قوله: ﴿ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ له مزية على قوله ولهم عذاب مهين لأن العبارة الأولى يدخل فيها أولئك الكفار وغيرهم والعبارة الثانية لا يدخل فيها إلاّ هم.

المسألة الثانية: العذاب في الحقيقة لا يكون مهيناً لأن معنى ذلك أنه أهان غيره وذلك مما لا يتأتى إلاّ في ما يعقل، فالله تعالى هو المهين للمعذبين بالعذاب الكثير إلا أن الإهانة لما حصلت مع العذاب جاز أن يجعل ذلك من وصفه، فإن قيل: العذاب لا يكون إلا مع الإهانة فما الفائدة في هذا الوصف؟ قلنا: كون العذاب مقروناً بالإهانة أمر لا بد فيه من الدليل، فالله تعالى ذكر ذلك ليكون دليلاً عليه.

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ البقرة: ٩١

اعلم أن هذا النوع أيضاً من قبائح أفعالهم: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ﴾ يعني به اليهود: ﴿ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾ أي بكل ما أنزل الله، والقائلون بالعموم احتجوا بهذه الآية على أن لفظة «ما» بمعنى الذي تفيد العموم، قالوا: لأن الله تعالى أمرهم بأن

يؤمنوا بما أنزل الله فلما آمنوا بالبعض دون البعض ذمهم على ذلك ولولا أن لفظة «ما» تفيد العموم لما حسن هذا الذم، ثم إنه تعالى حكى عنهم أنهم لما أمروا بذلك: ﴿قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ يعني بالتوراة وكتب سائر الأنبياء الذين أتوا بتقرير شرع موسى (عليه السلام) ثم أخبر الله تعالى عنهم أنهم يكفرون بما وراءه وهو الإنجيل والقرآن. وأورده هذه الحكاية عنهم على سبيل الذم لهم وذلك أنه لا يجوز أن يقال لهم آمنوا بما أنزل الله إلاّ ولهم طريق إلى أن يعرفوا كونه منزلاً من عند الله وإلاّ كان ذلك تكليف ما لا يطاق وإذا دل الدليل على كونه منزلاً من عند الله وجب الإيمان به، فثبت أن الإيمان ببعض ما أنزل الله دون البعض تناقض.

أما قوله تعالى:﴿وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ﴾ فهو كالإشارة إلى ما يدل على وجوب الإيمان بمحمد (صلى الله عليه وسلم)، وبيانه من وجهين: الأول: ما دل عليه قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْحَقُّ﴾ أنه لما ثبتت نبوة محمد (صلى الله عليه وسلم) بالمعجزات التي ظهرت عليه، إنه (عليه الصلاة والسلام) أخبر أن هذا القرآن منزل من عند الله تعالى وأنه أمر المكلفين بالإيمان به وكان الإيمان به واجباً لا محالة، وعند هذا يظهر أن الإيمان ببعض الأنبياء وبعض الكتب مع الكفر ببعض الأنبياء وبعض الكتب محال. الثاني: ما دل عليه قوله: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ﴾ وتقريره من وجهين، الأول: أن محمداً (صلوات الله وسلامه عليه) لم يتعلم علماً ولا استفاد من أستاذ، فلما أتى بالحكايات والقصص موافقة لما في التوراة من غير تفاوت أصلاً علمنا أنه (عليه الصلاة والسلام) إنما استفادها من الوحي والتنزيل. الثاني: أن القرآن يدل على نبوة محمد (صلى الله عليه وسلم) فلما أخبر الله تعالى عنه أنه مصدق للتوراة وجب اشتمال التوراة على الإخبار عن نبوته، وإلاّ لم يكن القرآن مصدقاً للتوراة بل مكذباً لها وإذا كانت التوراة مشتملة على نبوة محمد (عليه الصلاة والسلام) وهم قد اعترفوا بوجوب الإيمان بالتوراة لزمهم من هذه الجهة وجوب الإيمان بالقرآن وبنبوة محمد (عليه الصلاة والسلام).

أما قوله تعالى: ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ﴾ ففيه مسائل:

المسألة الأولى: أنه سبحانه وتعالى بين من جهة أخرى أن دعواهم كونهم مؤمنين بالتوراة متناقضة من وجوه أخر، وذلك لأن التوراة دلت على أن المعجزة تدل على الصدق ودلت على أن من كان صادقاً في ادعاء النبوة فإن قتله كفر، وإذا كان الأمر كذلك كان السعي في قتل يحيى وزكريا وعيسى (عليهم السلام) كفراً فلم سعيتم في ذلك إن صدقتم في ادعائكم كونكم مؤمنين بالتوراة.

المسألة الثانية: هذه الآية دالة على أن المجادلة في الدين من حرف الأنبياء (عليهم الصلاة والسلام) وإن إيراد المناقضة على الخصم جائز.

المسألة الثالثة: قوله: ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ﴾ وإن كان خطاب مشافهة لكن المراد من تقدم من سلفهم ويدل عليه وجوه، أحدها: أن الأنبياء في ذلك الزمان ما كانوا موجودين. وثانيها: أنهم ما أقدموا على ذلك، وثالثها: أنه لا يتأتى فيه من قبل. فأما المراد به الماضي فظاهر لأن القرينة دالة عليه. فإن قيل قوله: ﴿ءَامِنُواْ﴾ خطاب لهؤلاء الموجودين: ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ﴾ حكاية فعل أسلافهم فكيف وجه الجمع بينهما؟ قلنا معناه: أنكم بهذا التكذيب خرجتم من الإيمان بما آمنتم كما خرج أسلافكم بقتل بعض الأنبياء عن الإيمان بالباقين.

﴿وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ﴾

اعلم أن تكرير هذه الآية يغني عن تفسيرها والسبب في تكريرها أنه تعالى لما حكى طريقة اليهود في زمن محمد (صلى الله عليه وسلم) ووصفهم بالعناد والتكذيب ومثلهم بسلفهم في قتلهم الأنبياء الذي يناسب التكذيب لهم بل يزيد عليه، أعاد ذكر موسى (عليه السلام) وما جاء به من البينات وأنهم مع وضوح ذلك أجازوا أن يتخذوا العجل إلهاً وهو مع ذلك صابر ثابت على الدعاء إلى ربه والتمسك بدينه وشرعه فكذلك القول في حالي معكم وإن بالغتم في التكذيب والإنكار.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ

﴿وَٱسۡمَعُواْۖ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا وَأُشۡرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡعِجۡلَ بِكُفۡرِهِمۡۚ قُلۡ بِئۡسَمَا يَأۡمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾

اعلم أن في الإعادة وجوهاً:أحدها: أن التكرار في هذا وأمثاله للتأكيد وإيجاب الحجة على الخصم على عادة العرب، وثانيها: أنه إنما ذكر ذلك مع زيادة وهي قولهم:﴿ سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا ﴾ وذلك يدل على نهاية لجاجهم.

أما قوله تعالى: ﴿ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا ﴾ ففيه مسائل:

المسألة الأولى: أن إظلال الجبل لاشك أنه من أعظم المخوفات ومع ذلك فقد أصروا على كفرهم وصرحوا بقولهم ﴿ سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا ﴾ وهذا يدل على أن التخويف وإن عظم لا يوجب الانقياد.

المسألة الثانية: الأكثرون من المفسرين اعترفوا بأنهم قالوا هذا القول، قال أبو مسلم: وجائز أن يكون المعنى سمعوه فتلقوه بالعصيان فعبر عن ذلك بالقول وإن لم يقولوه كقوله تعالى:﴿ فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾البقرة: ١١٧، وكقوله: ﴿ قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ ﴾فصلت: ١١، والأول أولى لأن صرف الكلام عن ظاهره بغير الدليل لا يجوز.

أما قوله تعالى: ﴿ وَأُشۡرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡعِجۡلَ ﴾ ففيه مسائل:

المسألة الأولى: واشربوا في قلوبهم حب العجل، وفي وجه هذا الاستعارة وجهان، الأول: معناه تداخلهم حبه والحرص على عبادته كما يتداخل الصبغ الثوب، وقوله: ﴿ فِي قُلُوبِهِمُ ﴾ بيان لمكان الإشراف كقوله: ﴿ إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗا ﴾النساء: ١٠. الثاني: كما أن الشرب مادة لحياة ما تخرجه الأرض فكذا تلك المحبة كانت مادة لجميع ما صدر عنهم من الأفعال.

أما قوله تعالى: ﴿ بِكُفۡرِهِمۡ ﴾ فالمراد باعتقادهم التشبيه على الله وتجويزهم العبادة لغيره سبحانه وتعالى.

أما قوله: ﴿ قُلۡ بِئۡسَمَا يَأۡمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾ ففيه مسألتان:

المسألة الأولى: المراد بئسما يأمركم به إيمانكم بالتوراة لأنه ليس في التوراة عبادة

العجل وإضافة الأمر إلى إيمانهم تهكم كما قال في قصة شعيب:﴿ أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ ﴾هود: ٨٧ ، وكذلك إضافة الإيمان إليهم.

المسألة الثانية: الإيمان عرض ولا يصح منه الأمر والنهي لكن الداعي إلى الفعل قد يشبه بالآمر كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ ﴾ العنكبوت: ٤٥.

أما قوله تعالى: ﴿ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾ فالمراد التشكيك في إيمانهم والقدح في صحة دعواهم.

﴿قُلۡ إِن كَانَتۡ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوۡهُ أَبَدَۢا بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

اعلم أن هذا نوع آخر من قبائحهم وهو ادعاؤهم أن الدار الآخرة خالصة لهم من دون الناس ويدل عليه وجوه. أحدها: أنه لا يجوز أن يقال على طريق الاستدلال على الخصم إن كان كذا وكذا فافعل كذا إلا والأول مذهبه ليصح الزام الثاني عليه. وثانيها: ما حكى الله عنهم في قوله: ﴿ وَقَالُواْ لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ ﴾البقرة: ١١١ ، وفي قوله: ﴿ نَحۡنُ أَبۡنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ﴾ المائدة: ١٨، وفي قوله ﴿ وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَةٗ ﴾البقرة: ٨٠. وثالثها: اعتقادهم في أنفسهم أنهم هم المحقون لأن النسخ غير جائز في شرعهم، وأن سائر الفرق مبطلون، ورابعها: اعتقادهم أن انتسابهم إلى أكابر الأنبياء (عليهم السلام) أعني يعقوب وإسحاق وإبراهيم يخلصهم من عقاب الله تعالى ويوصلهم إلى ثوابه، ثم إنهم لهذه الأشياء عظموا شأن أنفسهم فكانوا يفتخرون على العرب وربما جعلوه كالحجة في أن النبي المنتظر المبشر به في التوراة منهم لا من العرب وكانوا يصرفون الناس بسبب هذه الشبهة عن اتباع محمد (صلى الله عليه وسلم)، ثم إن الله احتج على فساد قولهم بقوله: ﴿قُلۡ إِن كَانَتۡ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلۡمَوۡتَ ﴾ وبيان هذه الملازمة أن نعم الدنيا قليلة حقيرة

بالقياس إلى نعم الآخرة، ثم إن نعم الدنيا على قلتها كانت منغصة عليهم بسبب ظهور محمد (صلى الله عليه وسلم) ومنازعته معهم بالجدال والقتال، ومن كان في النعم القليلة المنغصة، ثم إن تيقن أنه بعد الموت لا بد وأن ينتقل إلى تلك النعم العظيمة فإنه لا بد وأن يكون راغباً في الموت لأن تلك النعم العظيمة مطلوبة ولا سبيل إليها إلا بالموت وما يتوقف عليه المطلوب وجب أن يكون مطلوباً فوجب أن يكون هذا الإنسان راضياً بالموت متمنياً له، فثبت أن الدار الآخرة لو كانت لهم خالصة لوجب أن يتمنوا الموت. ثم إن الله تعالى أخبر أنهم ما تمنوا الموت بل لن يتمنوه أبداً، وحينئذ يلزم قطعاً بطلان ادعائهم في قولهم إن الدار الآخرة خالصة لهم من دون الناس.

أما قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ﴾ فالمراد الجنة لأنها هي المطلوبة من دار الآخرة دون النار لأنهم كانوا يزعمون أن لهم الجنة.

وأما قوله تعالى: ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ فليس المراد المكان بل المنزلة ولا العند أيضاً في حمله على المكان فلعل اليهود كانوا مشبهة فاعتقدوا العندية المكانية فأبطل الله كل ذلك بالدلالة التي ذكرها.

وأما قوله تعالى: ﴿خَالِصَةً﴾ فنصب على الحال من الدار الآخرة، أي سالمة لكم خاصة بكم ليس لأحد سواكم فيها حق، يعني إن صح قولكم لن يدخل الجنة إلاّ من كان هوداً أو نصارى و(الناس) للجنس، وقيل: للعهد وهم المسلمون والجنس أولى لقوله إلاّ من كان هوداً أو نصارى ولأنه لم يوجد ههنا معهود.

وأما قوله: ﴿مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ﴾ فالمراد به سوى لا معنى المكان كما يقول القائل لمن وهب منه ملكاً: هذا لك من دون الناس.

وأما قوله تعالى: ﴿فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ ففيه مسألتان:

المسألة الأولى: هذا أمر معلق على شرط مفقود وهو كونهم صادقين فلا يكون الأمر موجوداً والغرض منه التحدي وإظهار كذبهم في دعواهم.

المسألة الثانية: في هذا التمني قولان، أحدهما: قول ابن عباس إنهم يتحدوا بأن

يدعو الفريقان بالموت على أي فريق كان أكذب. والثاني: أن يقولوا ليتنا نموت وهذا الثاني أولى لأنه أقرب إلى موافقة اللفظ.

أما قوله تعالى: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ﴾ فخبر قاطع عن أن ذلك لا يقع في المستقبل وهذا إخبار عن الغيب لأن مع توفر الدواعي على تكذيب محمد (صلى الله عليه وسلم) وسهولة الإتيان بهذه الكلمة، أخبر بأنهم لا يأتون بذلك فهذا إخبار جازم عن أمر قامت الأمارات على ضده فلا يمكن الوصول إليه إلا بالوحي.

وأما قوله تعالى:﴿أَبَدًا﴾ فهو غيب آخر لأنه أخبر أن ذلك لا يوجد ولا في شيء من الأزمنة الآتية في المستقبل ولا شك أن الإخبار عن عدمه بالنسبة إلى عموم الأوقات فهما غيبان.

وأما قوله تعالى: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ فبيان للعلة التي لها لا يتمنون (الموت) لأنهم إذا علموا سوء طريقتهم وكثرة ذنوبهم دعاهم ذلك إلى أن لا يتمنوا الموت.

وأما قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ فهو كالزجر والتهديد لأنه إذا كان عالماً بالسر والنجوى ولم يمكن إخفاء شيء عنه صار تصور المكلف لذلك من أعظم الصوارف عن المعاصي، وإنما ذكر الظالمين لأن كل كافر ظالم وليس كل ظالم كافراً فلما كان ذلك أعم كان أولى بالذكر فإن قيل: إنه تعالى قال ههنا: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا﴾ وقال في سورة الجمعة: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا﴾ فلم ذكر ههنا (لن) وفي سورة الجمعة «لا» قلنا: إنهم في هذه السورة، ادعوا أن الدار الآخرة خالصة لهم من دون الناس وادعوا في سورة الجمعة أنهم أولياء لله من دون الناس والله تعالى أبطل هذين الأمرين بأنه لو كان كذلك لوجب أن يتمنوا الموت والدعوى الأولى أعظم من الثانية إذ السعادة القصوى هي الحصول في دار الثواب، وأما مرتبة الولاية فهي وإن كانت شريفة إلا أنها إنما تراد ليتوسل بها إلى الجنة فلما كانت الدعوة الأولى أعظم لا جرم بين تعالى فساد قولهم بلفظ: «لن» لأنه أقوى الألفاظ النافية ولما كانت الدعوى الثانية ليست في غاية العظمة لا جرم اكتفى في إبطالها بلفظ «لا» لأنه ليس في نهاية القوة في إفادة معنى النفي، والله أعلم.

﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾

اعلم أنه سبحانه وتعالى لما أخبر عنهم في الآية المتقدمة أنهم لا يتمنون الموت أخبر في هذه الآية أنهم في غاية الحرص على الحياة لأن ههنا قسماً ثالثاً وهو أن يكون الإنسان بحيث لا يتمنى الموت ولا يتمنى الحياة فقال: ﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ ﴾.

واختلفوا في المراد بقوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ﴾

على ثلاثة أقوال قيل المجوس: لأنهم كانوا يقولون لملكهم: عش ألف نيروز وألف مهرجان، وعن ابن عباس هو قول الأعاجم: زي هزار سال، وقيل: المراد مشركوا العرب وقيل: كل مشرك لا يؤمن بالمعاد، لأنا بينا أن حرص هؤلاء على الدنيا ينبغي أن يكون أكثر وليس المراد من ذكر ألف سنة قول الأعاجم عش ألف سنة، بل المراد به التكثير وهو معروف في كلام العرب.

ما قوله تعالى: ﴿ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ فالمراد أنه تعالى بين بعدهم عن تمني الموت من حيث إنهم يتمنون هذا البقاء ويحرصون عليه هذا الحرص الشديد، ومن هذا حاله كيف يتصور منه تمني الموت؟

أما قوله تعالى: ﴿ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ﴾ ففيه مسألتان:

المسألة الأولى: في أن قوله: ﴿ وَمَا هُوَ ﴾ كناية عماذا؟ فيه ثلاثة أقوال، أحدها: أنه كناية عن «أحدهم» الذي جرى ذكره أي وما أحدهم بمن يزحزحه من النار تعميره، وثانيها: أنه ضمير لما دل عليه «يعمر» من مصدره و(أن يعمر) بدل منه، وثالثها: أن يكون مبهماً و(أن يعمر) موضحه.

المسألة الثانية: الزحزحة التبعيد والإنحاء، قال القاضي: والمراد أنه لا يؤثر في إزالة العذاب أقل تأثير ولو قال تعالى: وما هو بمبعده وبمنجيه لم يدل على قلة التأثير كدلالة هذا القول.

وأما قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ فاعلم أن البصر قد يراد به العلم،

يقال: إن لفلان بصراً بهذا الأمر، أي معرفة، وقد يراد به أنه على صفة لو وجدت المبصرات لأبصرها وكلا الوصفين يصحان عليه سبحانه إلا أن من قال: إن في الأعمال ما لا يصح أن يرى حُملَ هذا البصر على العلم لا محالة والله أعلم.

﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴾

اعلم أن هذا النوع أيضاً من أنواع قبائح اليهود ومنكرات أقوالهم وأفعالهم وفيه مسائل:

المسألة الأولى: أن قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ ﴾ لا بد له من سبب وأمر قد ظهر من اليهود حتى يأمره تعالى بأن يخاطبهم بذلك لأنه يجري مجرى المحاجة، فإذا لم يثبت منهم في ذلك أمر لا يجوز أن يأمره الله تعالى بذلك والمفسرون ذكروا أموراً، أحدها: أنه (عليه الصلاة والسلام) لما قدم المدينة أتاه عبد الله بن صوريا فقال: يا محمد كيف نومك، فقد أخبرنا عن نوم النبي الذي يجيء في آخر الزمان؟ فقال (عليه السلام): «تنام عيناي ولا ينام قلبي» قال: صدقت يا محمد، فأخبرني عن الولد أمن الرجل يكون أم من المرأة؟ فقال: أما العظام والعصب والعروق فمن الرجل، وأما اللحم والدم والظفر والشعر، فمن المرأة فقال صدقت. فما بال الرجل يشبه أعمامه دون أخواله أو يشبه أخواله دون أعمامه؟ فقال: أيهما غلب ماؤه ماء صاحبه كان الشبه له، قال: صدقت فقال: أخبرني أي الطعام حرم إسرائيل على نفسه وفي التوراة أن النبي الأمي يخبر عنه؟ فقال (عليه السلام): «أنشدكم بالله الذي أنزل التوراة على موسى هل تعلمون أن إسرائيل مرض مرضاً شديداً فطال سقمه فنذر لله نذراً لئن عافاه الله من سقمه ليحرمن على نفسه أحب الطعام والشراب، وهو لحمان الإبل وألبانها؟ فقالوا: نعم. فقال له: بقيت خصلة واحدة إن قلتها آمنت بك، أي ملك يأتيك بما تقول عن الله؟ قال جبريل: قال إن ذلك عدونا ينزل بالقتال والشدة، ورسولنا ميكائيل يأتي بالبشر والرخاء فلو كان

هو الذي يأتيك آمنا بك،» فقال عمر: وما مبدأ هذه العداوة؟ فقال ابن صوريا مبدأ هذه العداوة أن الله تعالى أنزل على نبينا أن بيت المقدس سيخرب في زمان رجل يقال له: بختنصر ووصفه لنا فطلبناه فلما وجدناه بعثنا لقتله رجالاً فدفع عنه جبريل وقال: إن سلطكم الله على قتله فهذا ليس هو ذاك الذي أخبر الله عنه أنه سيخرب بيت المقدس، فلا فائدة في قتله، ثم إنه كبر وقوى وملك وغزانا وخرب بيت المقدس وقتلنا، فلذلك نتخذه عدواً، وأما ميكائيل فإنه عدو جبريل فقال عمر؛ فإني أشهد أن من كان عدواً لجبريل فهو عدو لميكائيل وهما عدوان لمن عداهما فأنكر ذلك على عمر فأنزل الله تعالى هاتين الآيتين. وثانيها: روي أنه كان لعمر أرض بأعلى المدينة وكان ممره على مدراس اليهود وكان يجلس إليهم ويسمع كلامهم فقالوا: يا عمر قد أحببناك وإنا لنطمع فيك فقال: والله ما أجيئكم لحبكم ولا أسألكم لأني شاك في ديني وإنما أدخل عليكم لأزداد بصيرة في أمر محمد (صلى الله عليه وسلم) وأرى آثاره في كتابكم، ثم سألهم عن جبريل فقالوا: ذاك عدونا يطلع محمداً على أسرارنا وهو صاحب كل خسف وعذاب، وإن ميكائيل يجيء بالخصب والسلم فقال لهم: وما منزلتهما من الله؟ قالوا: أقرب منزلة، جبريل عن يمينه وميكائيل عن يساره وميكائيل عدواً لجبريل فقال عمر: لئن كان كما تقولون فما هما بعدوين ولأنتم أكفر من الحمير، ومن كان عدو لأحدهما كان عدواً للآخر ومن كان عدواً لهما كان عدواً الله، ثم رجع عمر فوجد جبريل (عليه السلام) قد سبقه بالوحي فقال النبي (صلى الله عليه وسلم): «لقد وافقك ربك يا عمر» قال عمر: لقد رأيتني في ديني بعد ذلك أصلب من الحجر، وثالثها: قال مقاتل زعمت اليهود أن جبريل (عليه السلام) عدونا، أمر أن يجعل النبوة فينا فجعلها في غيرنا فأنزل الله هذه الآيات.

واعلم أن الأقرب أن يكون سبب عداوتهم له أنه كان ينزل القرآن على محمد عليه السلام لأن قوله: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ مشعر بأن هذا التنزيل لا ينبغي أن يكون سبباً للعداوة لأنه إنما فعل ذلك بأمر الله فلا ينبغي أن يكون سبباً للعداوة وتقرير هذا من وجوه، أولها: أن الذي نزله جبريل

من القرآن بشارة المطيعين بالثواب وإنذار العصاة بالعقاب والأمر بالمحاربة والمقاتلة لما لم يكن ذلك باختياره بل بأمر الله الذي يعترفون أنه لا محيص عن أمره ولا سبيل إلى مخالفته فعداوة من هذا سبيله توجب عداوة الله وعداوة الله كفر، فيلزم أن عداوة من هذا سبيله كفر، وثانيها: أن الله تعالى لو أمر ميكائيل بإنزال مثل هذا الكتاب فإما أن يقال: إنه كان يتمرد أو يأبى عن قبول أمر الله وذلك غير لائق بالملائكة المعصومين أو كان يقبله ويأتي به على وفق أمر الله فحينئذ يتوجه على ميكائيل ما ذكروه على جبريل (عليهما السلام) فما الوجه في تخصيص جبريل بالعداوة؟ وثالثها: أن إنزال القرآن على محمد كما شق على اليهود فإنزال التوراة على موسى شق على قوم آخرين، فإن اقتضت نفرة بعض الناس لإنزال القرآن قبحه فلتقتض نفرة أولئك المتقدمين إنزال التوراة على موسى (عليه السلام) قبحه ومعلوم أن كل ذلك باطل فثبت بهذه الوجوه فساد ما قالوه.

المسألة الثانية: من الناس من استبعد أن يقول قوم من اليهود: إن جبريل عدوهم قالوا: لأنا نرى اليهود في زماننا هذا مطبقين على إنكار ذلك مصرين على أن أحداً من سلفهم لم يقل بذلك، واعلم أن هذا باطل لأن حكاية الله أصدق، ولأن جهلهم كان شديداً وهم الذين قالوا؛ ﴿ ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ ﴾الأعراف: ١٣٨ .

أما قوله تعالى: ﴿ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلۡبِكَ ﴾ ففيه سؤالات:

السؤال الأول: الهاء في قوله تعالى: «فإنه» وفي قوله: «نزله» إلى ماذا يعود؟ الجواب فيه قولان: أحدهما: أن الهاء الأولى تعود على جبريل والثانية: على القرآن وإن لم يجر له ذكر لأنه كالمعلوم كقوله: ﴿ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهۡرِهَا مِن دَآبَّةٖ ﴾فاطر: ٤٥ يعني على الأرض وهذا قول ابن عباس وأكثر أهل العلم. أي إن كانت عداوتهم لأن جبريل ينزل القرآن فإنما ينزله بإذن الله. قال صاحب «الكشاف»: إضمار ما لم يسبق ذكره فيه فخامة لشأن صاحبه حيث يجعل لفرط شهرته كأنه يدل على نفسه ويكتفي عن اسمه الصريح بذكر شيء من صفاته، وثانيهما: المعنى فإن الله نزل جبريل (عليه السلام) لا أنه نزل نفسه.

السؤال الثاني: القرآن: إنّما نزل على محمد (صلى الله عليه وسلم) فما السبب في قوله نزله على قلبك؟ الجواب: هذه المسألة ذكرناها في سورة الشعراء في قوله: ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ ﴾الشعراء: ١٩٣ - ١٩٤ وأكثر الأمة على أنه أنزل القرآن عليه لا على قلبه إلاّ أنه خص القلب بالذكر لأجل أن الذي نزل به ثبت في قلبه حفظاً حتى أداه إلى أمته، فلما كان سبب تمكنه من الأداء ثباته في قلبه حفظاً جاز أن يقال: نزله على قلبك وإن كان في الحقيقة نزله عليه لا على قلبه.

السؤال الثالث: كان حق الكلام أن يقال على قلبي، والجواب: جاءت على حكاية كلام الله كما تكلم به كأنه قيل: قل ما تكلمت به من قولي، من كان عدواً لجبريل فإنه نزله على قلبك.

أما قوله تعالى: ﴿ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ فالأظهر بأمر الله وهو أولى من تفسيره بالعلم لوجوه.أولها؛ أن الإذن حقيقة في الأمر مجاز في العلم واللفظ واجب الحمل على حقيقته ما أمكن. وثانيها: أن إنزاله كان من الواجبات والوجوب مستفاد من الأمر لا من العلم. وثالثها: أن ذلك الإنزال إذا كان عن أمر لازم كان أوكد في الحجة.

أما قوله تعالى: ﴿ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ فمحمول على ما أجمع عليه أكثر المفسرين من أن المراد ما قبله من كتب الأنبياء ولا معنى لتخصيص كتاب دون كتاب، ومنهم من خصه بالتوراة وزعم أنه أشار إلى أن القرآن يوافق التوراة في الدلالة على نبوة محمد (صلى الله عليه وسلم). فإن قيل: أليس أن شرائع القرآن مخالفة لشرائع سائر الكتب، فلم صار بأن يكون مصدقاً لها لكونها متوافقة في الدلالة على التوحيد ونبوة محمد أولى بأن يكون غير مصدق لها؟ قلنا: الشرائع التي تشتمل عليها سائر الكتب كانت مقدرة بتلك الأوقات ومنتهية في هذا الوقت بناء على أن النسخ بيان انتهاء مدة العبادة، وحينئذ لا يكون بين القرآن وبين سائر الكتب اختلاف في الشرائع.

أما قوله تعالى: ﴿ وَهُدًى ﴾ فالمراد به أن القرآن مشتمل على أمرين. أحدهما: بيان ما وقع التكليف به من أعمال القلوب وأعمال الجوارح وهو من هذا الوجه

هدى. وثانيهما: بيان أن الآتي بتلك الأعمال كيف يكون ثوابه وهو من هذا الوجه بشرى، ولما كان الأول مقدماً على الثاني في الوجود لا جرم قدم الله لفظ الهدى على لفظ البشرى، فإن قيل: ولم خص كونه هدى وبشرى بالمؤمنين مع أنه كذلك بالنسبة إلى الكل؟ الجواب من وجهين: الأول: أنه تعالى إنما خصهم بذلك، لأنهم هم الذين اهتدوا بالكتاب فهو كقوله تعالى: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾البقرة: ٢. والثاني: أنه لا يكون بشرى إلاّ للمؤمنين، وذلك لأن البشرى عبارة عن الخبر الدال على حصول الخير العظيم وهذا لا يحصل إلا في حق المؤمنين، فلهذا خصهم الله به.

أما الآية الثانية وهي قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ﴾ فاعلم أنه تعالى لما بين في الآية الأولى: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ﴾لأجل أنه نزل القرآن على قلب محمد، وجب أن يكون عدواً لله تعالى، بين في هذه الآية أن من كان عدواً لله كان عدواً له، فبين أن في مقابلة عداوتهم ما يعظم ضرر الله عليهم وهو عداوة الله لهم، لأن عداوتهم لا تؤثر ولا تنفع ولا تضر، وعداوته تعالى تؤدي إلى العذاب الدائم الأليم الذي لا ضرر أعظم منه، وههنا سؤالات:

السؤال الأول: كيف يجوز أن يكونوا أعداء الله ومن حق العداوة الإضرار بالعدو، وذلك محال على الله تعالى؟ والجواب: أن معنى العداوة على الحقيقة لا يصح إلاّ فينا لأن العدو للغير هو الذي يريد إنزال المضار به، وذلك محال على الله تعالى، بل المراد منه أحد وجهين، إما أن يعادوا أولياء الله فيكون ذلك عداوة لله كقوله: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾المائدة: ٣٣ وكقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾الأحزاب: ٥٧، لأن المراد بالآيتين أولياء الله دونه لاستحالة المحاربة والأذية عليه، وإما أن يراد بذلك كراهتهم القيام بطاعته وعبادته وبعدهم عن التمسك بذلك فلما كان العدو لا يكاد يوافق عدوه أو ينقاد له شبه طريقتهم في هذا الوجه بالعداوة، فأما عداوتهم لجبريل والرسل فصحيحة لأن الإضرار جائز عليهم لكن عداوتهم لا تؤثر فيهم لعجزهم عن الأمور المؤثرة فيهم، وعداوتهم مؤثرة في اليهود لأنها في العاجل تقتضي الذلة والمسكنة، وفي الآجل تقتضي العذاب الدائم.

السؤال الثاني: لما ذكر الملائكة فلم أعاد ذكر جبريل وميكائيل مع اندراجهما في الملائكة؟ الجواب لوجهين، الأول: أفردهما بالذكر لفضلهما كأنهما لكمال فضلهما صارا جنساً آخر سوى جنس الملائكة، الثاني: أن الذي جرى بين الرسول واليهود هو ذكرهما والآية إنما نزلت بسببهما، فلا جرم نص على اسميهما، واعلم أن هذا يقتضي كونهما أشرف من جميع الملائكة وإلا لم يصح هذا التأويل، وإذا ثبت هذا فنقول: يجب أن يكون جبريل (عليه السلام) أفضل من ميكائيل لوجوه، أحدها: أنه تعالى قدم جبريل (عليه السلام) في الذكر، وتقديم المفضول على الفاضل في الذكر مستقبح عرفاً فوجب أن يكون مستقبحاً شرعاً لقوله (عليه السلام): « ما رآه المسلمون حسناً فهو عند الله حسن »، وثانيها: أن جبريل (عليه السلام) ينزل بالقرآن والوحي والعلم وهو مادة بقاء الأرواح، وميكائيل ينزل بالخصب والأمطار وهي مادة بقاء الأبدان، ولما كان العلم أشرف من الأغذية وجب أن يكون جبريل أفضل من ميكائيل، وثالثها: قوله تعالى في صفة جبريل: ﴿ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴾التكوير: ٢١ ذكره يوصف المطاع على الإطلاق، وظاهره يقتضي كونه مطاعاً بالنسبة إلى ميكائيل فوجب أن يكون أفضل منه.

﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴾

اعلم أن هذا نوع آخر من قبائحهم وفضائحهم قال ابن عباس: إن اليهود كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله (صلى الله عليه وسلم) قبل مبعثه فلما بعث من العرب كفروا به وجحدوا ما كانوا يقولون فيه: فقال لهم معاذ بن جبل يا معشر اليهود اتقوا الله وأسلموا فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد ونحن أهل الشرك وتخبروننا أنه مبعوث وتصفون لنا صفته، فقال بعضهم ما جاءنا بشيء من البينات وما هو بالذي كنا نذكر لكم فأنزل الله تعالى هذه الآية فهو على هذا الكلام محال لكن جبريل لما نزل من الأعلى إلى الأسفل وأخبر به سمي ذلك إنزالاً.

المسألة الأولى: الكفر بها من وجهين. أحدهما: جحودها مع العلم بصحتها. والثاني: جحودها مع الجهل وترك النظر فيها والإعراض عن دلائلها وليس في الظاهر

تخصيص فيدخل الكل فيه.

المسألة الثانية: الفسق في اللغة خروج الإنسان عما حد له قال الله تعالى:﴿ إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓۗ ﴾الكهف: ٥٠، وتقول العرب للنواة: إذا خرجت من الرطبة عند سقوطها فسقت النواة، وقد يقرب من معناه الفجور، لأنه مأخوذ من فجور السد الذي يمنع الماء من أن يصير إلى الموضع الذي يفسد [إذا صار إليه] فشبه تعدي الإنسان ما حد له إلى الفساد بالذي فجر السد حتى صار إلى حيث يفسد.

ـ الطباطبائي:

﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمۡ كِتَٰبٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمۡ وَكَانُواْ مِن قَبۡلُ يَسۡتَفۡتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٨٩ بِئۡسَمَا ٱشۡتَرَوۡاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمۡ أَن يَكۡفُرُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغۡيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٖۚ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٞ مُّهِينٞ ٩٠ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ نُؤۡمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا وَيَكۡفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَهُمۡۗ قُلۡ فَلِمَ تَقۡتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبۡلُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٩١ ۞ وَلَقَدۡ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذۡتُمُ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَنتُمۡ ظَٰلِمُونَ ٩٢ وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ وَرَفَعۡنَا فَوۡقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ وَٱسۡمَعُواْۖ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا وَأُشۡرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡعِجۡلَ بِكُفۡرِهِمۡۚ قُلۡ بِئۡسَمَا يَأۡمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾ البقرة: ٨٩ - ٩٣.

قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمۡ ﴾ الخ، السياق يدل على أن هذا الكتاب هو القرآن.

وقوله: ﴿ وَكَانُواْ مِن قَبۡلُ يَسۡتَفۡتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾، على وقوع تعرض بهم من كفار العرب، وأنهم كانوا يستفتحون أي يطلبون الفتح عليهم ببعثة النبي (صلى

الله عليه وآله وسلم) وهجرته وأن ذلك الاستفتاح قد استمر منهم قبل الهجرة، بحيث كان الكفار من العرب أيضاً يعرفون ذلك منهم لمكان قوله: كانوا، وقوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ﴾، أي عرفوا أنه هو بإنطباق ما كان عندهم من الأوصاف عليه كفروا.

قوله تعالى: ﴿بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْاْ﴾، بيان لسبب كفرهم بعد العلم وأن السبب الوحيد في ذلك هو البغي والحسد، فقوله بغياً، مفعول مطلق نوعي، وقوله: ﴿أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ﴾، متعلق به، وقوله تعالى: ﴿فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ﴾، أي رجعوا بمصاحبته أو بتلبس غضب بسبب كفرهم بالقرآن على غضب بسبب كفرهم بالتوراة من قبل، والمعنى أنهم كانوا قبل البعثة والهجرة ظهيراً للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ومستفتحاً به وبالكتاب النازل عليه، ثم لما نزل بهم النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ونزل عليه القرآن وعرفوا أنه هو الذي كانوا يستفتحون به وينتظرون قدومه هاج بهم الحسد، وأخذهم الاستكبار، فكفروا وإنكروا ما كانوا يذكرونه كما كانوا يكفرون بالتوراة من قبل، فكان ذلك منهم كفراً على كفر.

قوله تعالى: ﴿وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ﴾، أي يظهرون الكفر بما ورائه، وإلاّ فهم بالذي أنزل إليهم وهو التوراة أيضاً كافرون.

قوله تعالى: ﴿قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ﴾، الفاء للتفريع، والسؤال متفرع على قولهم: نؤمن بما أنزل علينا، أي لو كان قولكم: نؤمن بما أنزل علينا حقاً وصدقاً فلم تقتلون أنبياء الله، ولم كفرتم بموسى بإتخاذ العجل، ولم قلتم عند أخذ الميثاق ورفع الطور: سمعنا وعصينا.

قوله تعالى: ﴿وَأُشْرِبُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾، الإشراب هو السقى، والمراد بالعجل حب العجل، وضع موضعه للمبالغة كأنهم قد أشربوا نفس العجل وبه يتعلق قوله في قلوبهم، ففي الكلام استعارتان أو استعارة ومجاز.

قوله تعالى: ﴿بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ﴾، بمنزلة أخذ النتيجة مما أورد عليهم من قتل الأنبياء والكفر بموسى، والاستكبار بإعلام المعصية، وفيه معنى

الاستهزاء بهم.

في تفسير العيّاشي عن الصادق (عليه السلام): في قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ ﴾ الآية، قال (عليه السلام): كانت اليهود تجد في كتبهم أن مهاجر محمد رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ما بين عير وأحد فخرجوا يطلبون الموضع، فمروا بجبل يقال له حداد فقالوا حداد وأُحد سواء، فتفرقوا عنده، فنزل بعضهم بتيماً، وبعضهم بفدك، وبعضهم بخيبر، فاشتاق الذين بتيماً إلى بعض إخوانهم، فمرّ بهم أعرابي من قيس فتكاروا منه، وقال لهم أمر بكم ما بين عير وأُحد، فقالوا له إذا مررت بهما فآذنا لهما، فلما توسط بهم أرض المدينة، قال ذلك عير وهذا أحد فنزلوا عن ظهر إبله وقالوا له قد أصبنا بغيتنا فلا حاجة بنا إلى إبلك فاذهب حيث شئت وكتبوا إلى إخوانهم الذين بفدك وخيبر أنا قد أصبنا الموضع فهلموا إلينا فكتبوا إليهم إنا قد استقرت بنا الدار واتخذنا بها الأموال وما أقربنا منكم فإذا كان ذلك أسرعنا إليكم، واتخذوا بأرض المدينة، أموالاً فلما كثرت أموالهم بلغ ذلك تبع فغزاهم فتحصنوا منه فحاصرهم ثم آمنهم فنزلوا عليه فقال لهم إني قد استطبت بلادكم ولا أراني إلاّ مقيماً فيكم، فقالوا: ليس ذلك لك إنها مهاجر نبي، وليس ذلك لأحد حتى يكون ذلك، فقال لهم فإني مخلف فيكم من أسرتي من إذا كان ذلك ساعده ونصره فخلف حيين تراهم: الأوس والخزرج، فلما كثروا بها كانوا يتناولون أموال اليهود، فكانت اليهود تقول لهم: أما لو بعث محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) لنخرجنكم من ديارنا وأموالنا فلما بعث الله محمداً آمنت به الانصار وكفرت به اليهود وهو قوله تعالى: ﴿ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ إلى آخر الآية.

وفي الدر المنثور أخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو نعيم (في الدلائل) عن إبن عباس أن اليهود كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله قبل مبعثه، فلما بعثه الله من العرب كفروا به وجحدوا ما كانوا يقولون فيه، فقال لهم معاذ بن جبل وبشر بن أبي البراء وداود بن سلمة يا معشر اليهود

إتقوا الله وأسلموا فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد ونحن أصل شرك وتخبرونا بأنه مبعوث وتصفونه بصفته، فقال سلام بن مشكم أحد بني النضير: ما جاءنا بشيء نعرفه وما هو بالذي كنا نذكر لكم فأنزل الله: ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾الآية.

وفي الدر المنثور أيضاً أخرج أبو نعيم في الدلائل من طريق عطاء والضحاك عن إبن عباس قال كانت يهود بني قريظة والنضير من قبل أن يبعث محمد (صلى الله عليه وسلم) يستفتحون الله، يدعون على الذين كفروا ويقولون: اللهم إنا نستنصرك بحق النبي الأمي إلاّ نصرتنا عليهم فينصرون فلما جاءهم ما عرفوا يريد محمداً (صلى الله عليه وآله وسلم) ولم يشكوا فيه كفروا به.

أقول: وروي قريباً من هذين المعنيين بطرق أُخرى أيضاً، قال بعض المفسرين بعد الإشارة إلى الرواية الأخيرة ونظائرها: إنها على ضعف رواتها ومخالفتها للروايات المنقولة شاذة المعنى بجعل الاستفتاح دعاء بشخص النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وفي بعض بحقه وهذا غير مشروع ولا حق لأحد على الله فيدعى به إنتهى.

وهذا ناشئ من عدم التأمل في معنى الحق وفي معنى القسم، بيانه: أن القسم هو تقييد الخبر أو الإنشاء بشيء ذي شرافة وكرامة من حيث أنه شريف أو كريم فتبطل شرافته أو كرامته ببطلان النسبة الكلامية، فإن كان خبراً فببطلان صدقه وإن كان إنشاء أمراً أو نهياً فبعدم إمتثال التكليف، فإذا قلت: لعمري إن زيداً قائم فقد قيدت صدق كلامك بشرافة عمرك وحياتك وعلقتها عليه بحيث لو كان حديثك كاذباً كان عمرك فاقداً للشرافة، وكذا إذا قلت إفعل كذا وحياتي أو قلت أقسمك بحياتي أن تفعل كذا فقد قيدت أمرك بشرف حياتك بحيث لو لم يأتمر مخاطبك لذهب بشرف حياتك وقيمة عمرك.

ومن هنا يظهر أولاً: أن القسم أعلى مراتب التأكيد في الكلام كما ذكره أهل الأدب.

وثانياً: أن المقسم به يجب أن يكون أشرف من متعلقه فلا معنى لتأكيد الكلام

بما هو دونه في الشرف والكرامة. وقد أقسم الله تعالى في كتابه باسم نفسه ووصفه كقوله: ﴿ وَٱللَّهِ رَبِّنَا ﴾ الأنعام: ٢٣ وكقوله: ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ ﴾ الحجر: ٩٢ وقوله: ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ ﴾ ص: ٨٢ وأقسم بنبيه وملائكته وكتبه وأقسم بمخلوقاته كالسماء والأرض والشمس والقمر والنجوم والليل والنهار واليوم والجبال والبحار والبلاد والإنسان والشجر والتين والزيتون، وليس إلاّ أن لها شرافة حقة بتشريف الله وكرامة على الله من حيث إن كلاً منها إما ذو صفة من أوصافه المقدسة الكريمة بكرامة ذاته المتعالية أو فعل منسوب إلى منبع البهاء والقدس ـ والكل شريف بشرف ذاته الشريفة ـ فما المانع للداعي منا إذا سُئل الله شيئاً أن يساله بشيء منها من حيث أن الله سبحانه شرفه وأقسم به؟ وما الذي هون الأمر في خصوص رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) حتى أخرجه من هذه الكلية واستثناء من هذه الجملة؟

ولعمري ليس رسول الله محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) بأهون عند الله من تينه عراقية، أو زيتونة شامية، وقد أقسم الله بشخصه الكريم فقال: ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ الحجر: ٧٢ .

ثم إن الحق ـ ويقابله الباطل ـ هو الثابت الواقع في الخارج من حيث انه كذلك كالأرض والإنسان وكل أمر ثابت في حد نفسه ومنه الحق المالي وسائر الحقوق الإجتماعية حيث أنها ثابتة بنظر الإجتماع وقد أبطل القرآن كل ما يدعي حقاً إلاّ ما حققه الله وأثبته سواء في الايجاد أو في التشريع فالحق في عالم التشريع وظرف الاجتماع الديني هو ما جعله الله حقا كالحقوق المالية وحقوق الإخوان والوالدين على الولد وليس هو سبحانه محكوماً بحكم أحد فيجعل عليه تعالى ما يلزم به كما ربما يظهر من بعض الاستدلالات الاعتزالية غير أنه من الممكن أن يجعل على نفسه حقاً، جعلاً بحسب لسان التشريع ـ فيكون حقاً لغيره عليه تعالى كما قال تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ يونس: ١٠٣، وقال تعالى ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾ الصافات: ١٧١ - ١٧٣ .

والنصر كما ترى مطلق، غير مقيد بشيء فالإنجاء حق للمؤمنين على الله، والنصر

حق للمرسل على الله تعالى وقد شرفه الله تعالى حيث جعله له فكان فعلاً منه منسوباً إليه مشرفاً به فلا من القسم به عليه تعالى وهو الجاعل المشرف للحق والمقسم بكل أمر شريف.

إذا عرفت ما ذكرناه علمت أن لا مانع من إقسام الله تعالى بنبيه (صلى الله عليه وآله وسلم) أو بحق نبيه وكذا إقسامه بأوليائه الطاهرين أو بحقهم وقد جعل لهم على نفسه حقاً أن ينصرهم في صراط السعادة بكل نصر مرتبط بها كما عرفت، وأما قول القائل: ليس لأحد على الله حق فكلام واهٍ.

نعم ليس على الله حق يثبته عليه غيره فيكون محكوماً بحكم غيره مقهوراً بقهر سواه، كلام لأحد في ذلك ولا أن الداعي يدعوه بحق ألزمه به غيره بل بما جعله هو تعالى بوعده الذي لا يخلف هذا.

﴿ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ البقرة: ٩٤ - ٩٩

قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ﴾ إلخ، لما كان قولهم: ﴿ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ﴾البقرة: ٨٠، وقولهم: ﴿ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ﴾ في جواب ما قيل لهم: ﴿آمِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ يدلان بالالتزام على دعويهم أنهم ناجون في الآخرة دون غيرهم وأن نجاتهم وسعادتهم فيها غير مشوبة بهلاك وشقاء لأنهم ليسوا بزعمهم بمعذبين إلاّ أياماً معدودة وهي أيام عبادتهم للعجل قابلهم الله تعالى خطاباً بما

يظهر به كذبهم في دعويهم وانهم يعلمون ذلك من غير تردد وإرتياب فقال تعالى لنبيه: ﴿ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ ﴾ أي سعادة تلك الدار فإن من ملك داراً فإنما يتصرف فيها بما يستحسنه ويحبه ويحل منها بأجمل ما يمكن وأسعده وقوله تعالى: ﴿ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ أي مستقراً عنده تعالى وبحكمه وإذنه، فهو كقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾آل عمران: ١٩، وقوله تعالى:﴿ خَالِصَةً ﴾ أي غير مشوبة بما تكرهونه من عذاب أو هوان لزعمكم أنكم لا تعذبون فيها إلاّ أياماً معدودة.

قوله تعالى: ﴿ مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ ﴾ وذلك لزعمكم بطلان كل دين إلاّ دينكم، وقوله تعالى: ﴿ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ وهذا كقوله تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾الجمعة: ٦ ، وهذه مؤاخذه بلازم فطري بين الأثر في الخارج بحيث لا يقع فيه أدنى الشك وهو إن الإنسان بل كل موجود ذي شعور إذا خيّر بين الراحة والتعب إختار الراحة من غير تردد وتذبذب وإذا خير بين حياة وعيشة مكدرة مشوبة وأخرى خالصة صافية إختار الخالصة الهنيئة قطعاً، ولو فرض إبتلائه بما كان يميل عنه إلى غيره من حياة شقية ردية أو عيشة منغصة لم يزل يتمنى الأخرى الطيبة الهنيئة فلا ينفك عن التحسر له في قلبه وعن ذكره في لسانه وعن السعي إليه في عمله.

فلو كانوا صادقين في دعواهم أن السعادة الخالصة الأُخروية لهم دون غيرهم من الناس وجب أن يتمنوه جناناً ولساناً أركاناً ولن يتمنوه أبداً بما قدمت أيديهم من قتل الأنبياء والكفر بموسى ونقض المواثيق والله عليم بالظالمين.

قوله تعالى: ﴿ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ كناية عن العمل فإن معظم العمل عند الحس يقع بواسطة اليد فيقدم بعد ذلك إلى من ينتفع به أو يطلبه ففيه عنايتان نسبة التقديم إلى الأيدي دون أصحاب الأيدي وعد كل عملاً للأيدي.

وبالجملة أعمال الإنسان وخاصة ما يستمر صدوره منه أحسن دليل على ما طوى عليه ضميره وارتكز في باطنه والأعمال الطالحة والأفعال الخبيثه لا يكشف إلاّ

عن طوية خبيثة تأبى أن تميل إلى لقاء الله والحلول في دار أوليائه.

قوله تعالى: ﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ ﴾ كالدليل المبين لقوله تعالى: ﴿ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا ﴾ أي ويشهد على أنهم لن يتمنوا الموت، أنهم أحرص الناس على هذه الحيوة الدنيا التي لا حاجب ولا مانع عن تمني الدار الآخرة إلاّ الحرص عليها والإخلاد إليها، والتنكير في قوله تعالى: على حياة للتحقير كما قال تعالى: ﴿ وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ العنكبوت: ٦٤ .

قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ﴾ الظاهر أنه عطف على الناس والمعنى ولتجدنهم أحرص من الذين أشركوا.

قوله تعالى: ﴿ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ﴾، الظاهر أن ما نافية وضمير هو إما للشأن والقصة وأن يعمر مبتدأ خبره قوله: ﴿ بِمُزَحْزِحِهِۦ ﴾ أي بمبعده، وإما راجع إلى ما يدل عليه قوله: ﴿ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ ﴾ ، أي وما الذي يوده بمزحزحه من العذاب، وقوله تعالى: ﴿ أَن يُعَمَّرَ ﴾ بيان له ومعنى الآية ولن يتمنوا الموت، وأقسم لتجدنهم أحرص الناس على هذه الحياة الحقيرة الردية الصارفة عن تلك الحيوة السعيدة الطيبة بل تجدهم أحرص على الحيوة من الذين أشركوا الذين لا يرون بعثاً ولا نشوراً يود أحدهم لو يعمر أطول العمر وليس أطول العمر بمبعده من العذاب لأن العمر وهو عمر بالآخرة محدود منته إلى أمد وأجل.

قوله تعالى: ﴿ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ ، أي أطول العمر وأكثره، فالألف كناية عن الكثرة وهو آخر مراتب العدد بحسب الوضع الإفرادي عند العرب والزائد عليه يعبر عنه بالتكرير والتركيب كعشرة آلاف ومائة الف وألف ألف.

قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾، البصير من أسمائه الحسنى ومعناه العلم بالمبصرات فهو من شعب إسم العليم.

قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ ﴾ إلخ. السياق يدل على أن الآية نزلت جواباً عما قالته اليهود وأنهم تابوا واستنكفوا عن الإيمان بما

أنزل على رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، وعللوه بأنهم عدو لجبريل النازل بالوحي إليه، والشاهد على ذلك أن الله سبحانه يجيبهم في القرآن، وفي جبريل معاً في الآيتين، وما ورد من شأن النزول يؤيد ذلك فأجاب عن قولهم: إنا لا نؤمن بالقرآن لعداوتنا لجبريل النازل به أولاً: أن جبريل إنما نزل به على قلبك بإذن الله لا من عند نفسه فعداوتهم لجبريل لا ينبغي أن يوجب إعراضهم عن كلام نازل بإذن الله، وثانياً: أن القرآن مصدق لما في أيديهم من الكتاب الحق ولا معنى للإيمان بأمر والكفر بما يصدقه، وثالثاً، أن القرآن هدى للمؤمنين به، ورابعاً: أنه بشرى وكيف يصح لعاقل أن ينحرف عن الهداية ويغمض عن البشرى ولو كان الآتي بذلك عدواً له.

وأجاب عن قولهم: إنا عدو جبريل أن جبريل ملك من الملائكة لا شأن له إلاّ إمتثال ما أمره به الله سبحانه كميكائيل وسائر الملائكة وهم عباد مكرمون لا يعصون الله فيما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، وكذلك رسل الله لا شأن لهم إلاّ بالله ومن الله سبحانه فبغضهم وإستعدائهم بغض وإستعداء لله ومن كان عدواً لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فإن الله عدو لهم، وإلى هذين الجوابين تشير الآيتان.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾، فيه إلتفات من التكلم إلى الخطاب وكان الظاهر أن يقال على قلبي، لكن بدل من الخطاب للدلالة على أن القرآن كما لا شأن في إنزاله لجبريل وإنما هو مأمور مطيع كذلك لا شأن في تلقيه وتبليغه لرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) إلاّ أن قلبه وعاء للوحي لا يملك منه شيئاً وهو مأمور بالتبليغ.

واعلم أن هذه الآيات في أواخرها، أنواع الالتفات وإن كان الأساس فيها الخطاب لبني إسرائيل، غير أن الخطاب إذا كان خطاب لوم وتوبيخ وطال الكلام صار المقام مقام إستملال للحديث مع المخاطب وإستحقار، لشأنه فكان من الحري للمتكلم البليغ الإعراض عن المخاطبة تارة بعد أخرى بالالتفات بعد الالتفات للدلالة على أنه لا يرضى بخطابهم لرداءة سمعهم وخسة نفوسهم ولا يرضى بترك خطابهم إظهاراً

لحق القضاء عليهم.

قوله تعالى: ﴿عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ ، فيه وضع الظاهر موضع المضمر والنكتة فيه الدلالة على علّة الحكم كانه قيل: فإن الله عدو لهم لأنهم كافرون والله عدو للكافرين.

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ﴾، فيه دلالة على علّة الكفر وأنه الفسق فهم لكفرهم فاسقون ولا يبعد أن يكون اللام في قولة الفاسقون للعهد الذكري، ويكون ذلك إشارة إلى ما مر في أوائل السورة من قوله تعالى:﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾البقرة: ٢٦ - ٢٧ الآية.

وأما الكلام في جبريل وكيفية تنزيله القرآن على قلب رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وكذا الكلام في ميكال والملائكة فسيأتي فيما يناسبه من المحل إن شاء الله.

في المجمع في قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ﴾

الآيتان، قال إبن عباس كان سبب نزول الآية ما روي أن ابن صوريا وجماعة من يهود أهل فدك لما قدم النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) المدينة سألوه فقالوا: يا محمد كيف نومك؟ فقد أخبرنا عن نوم النبي الذي يأتي في آخر الزمان.

فقال تنام عيناي وقلبي يقظان. قالوا: صدقت يا محمد فأخبرنا عن الولد يكون من الرجل أو المرأة؟ فقال أما العظام والعصب والعروق فمن الرجل وأما اللحم والدم والظفر والشعر فمن المرأة، قالوا: صدقت يا محمد فما بال الولد يشبه أعمامه وليس له من شبه أخواله شيء؟ أو يشبه أخواله وليس فيه من شبه أعمامه شيء؟ فقال أيهما علا ماءه كان الشبه له قالوا صدقت يا محمد فأخبرنا عن ربك ما هو؟ فأنزل الله سبحانه: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ الإخلاص: ١ إلى آخر السورة، فقال له إبن صوريا خصلة واحدة إن قلتها آمنت بك واتبعتك، ملك يأتيك بما ينزل الله عليك؟ قال: فقال جبرئيل، قال: ذاك عدونا ينزل بالقتال والشدة والحرب وميكائيل ينزل باليسر والرخاء فلو كان ميكائيل هو الذي يأتيك لآمنا بك.

أقول: قوله: تنام عيناي وقلبي يقظان، قد استفاض الحديث من العامة والخاصة أنه كان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) تنام عينه ولا ينام قلبه ومعناه أنه كان لا يغفل بالنوم عن نفسه فكان وهو في النوم يعلم أنه نائم وأن ما يراه رؤيا يراها ليس باليقظة، وهذا أمر بما يتفق للصالحين أحياناً عند طهارة نفوسهم وإشتغالها بذكر مقام ربهم وذلك أن إشراف النفس على مقام ربها لا يدعها غافلة عما لها من طور الحيوة الدنيوية ونحو تعلقها بربها، وهذا نحو مشاهدة يبين للإنسان أنه في عالم الحياة الدنيا على حال النوم سواء معه النوم الذي يراه الناس نوماً فقط وكذا اليقظة التي يراها الناس يقظة وأن الناس وهم معتكفون على باب الحس مخلدون إلى أرض الطبيعة، رقود وإن عدوا أنفسهم أيقاظاً، فعن علي (عليه السلام): الناس نيام فإذا ماتوا إنتبهوا الحديث، وسيأتي زيادة استيفاء لهذا البحث، وكذا الكلام في سائر فقرات هذا الحديث في مواضع مناسبة من هذا الكتاب إن شاء الله.

التعليق على ما مرّ من التفسير نقول

الإجماع واضح وجلي بين المفسرين حول مواضيع هذه الآيات المباركات والجميع قد تميز وإن كان لكل واحد من هؤلاء العلماء أسلوباً خاصاً به أضاف من خلاله فوائد علمية أو لغوية أو تاريخية أو روائية أو أدبية. فجزاهم الله خير الجزاء.